

بیار زونایں

سیر الراقبتہ



دار الحبیل
بیروت

سرّ الراهبة

قصة الصراع بين الخير والشر.

قصة الالم والدمع والشوق والحنين.

قصة الحب الطاهر المقدس الشريف.

قصة سر الراهبة. كتبها القاص المعروف الاستاذ بيار روفائل
باسلوبه الرشيق، واعتمد فيها اسلوباً جديداً في فلسفة الحياة.

راهبة جاءت تنزوي في دير بعيد على قمة جبل اخضر اشم
تبكي ماضيها الغاشم الرهيب وتكفر عن خطاياها وآثامها. في
قلب تلك الراهبة سرّ مخيف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسَارُوفِ نَائِلِ

عَمْرُ الرَّاقِبِ

وَلَارِ الْحَبِيصِ

بَيْرُوتِ

بجميع الحقوق محفوظة

لدار الجليل

الطبعة الخامسة

١٩٩٤

مقدمة

سر الراهبة .. قصة الخير والشر .
قصة الألم والدمع والشوق والحنين .
قصة الحب الطاهر المقدس الشريف .
قصة الروح التي تنغمس في الظلام الدامس
القاتم السواد .
تقتل لتسجل .
ثم ترى النور ، وتسير في الطريق الطويل
البعيد نحو الأعالي ..
قصة « سر الراهبة » كتبها القاص المعروف
الاستاذ بيار روقايل صاحب مجلة « نصف
الليل » القصصية بأسلوبه الرشيق .
واعتمد فيها أسلوباً جديداً في فلسفة الحياة .
إنها قصة راهبة كانت تعيش في بؤرة الفساد
قبل أن يهديها الحب المقدس الى السماء .

لم تكن « رفقة » المرأة الشريرة تعرف ما
هي السباء ، الى ان تعرفت الى الحب الروحي
الخالد

وأصبحت المرأة الشريرة الفاسقة راهبة
تتزوي في دير بعيد ، ينتصب على قمة جبل
أخضر أشم ، تبكي ماضيها القاتم الرهيب
وتكفر عن خطاياها وآثامها .

في قلب تلك الراهبة سر خيف ... حرصت
عليه حرصها على روحها .
وكان لا بد للسر من إفشاء .

وفي هذه القصة يفشي المؤلف بيار روفاييل
« سر الراهبة » ويضعه أمام قرائه
قصة « سر الراهبة » قصة النور والظلام .
قصة الروح والجسد .

وما نحن نضع « الطبعة الخامسة » من هذه
القصة بين أيدي قرائنا ، بعد ان نفذت الطبعات
الأربع من المكتبات آملين ان تنال رضاكم .
والله ولي التوفيق .

تمهيد

الليل مكفر عبوس ،

والقيامه الدكناه تنتشر في الفضاء الرحيب بأسطة على
سواد الليل البهيم وشاحها للقاتم ، وساكنة على الطبيعة ،
الثرثارة المجنونة ، الناظقة بألف لسان ولسان ، وبألف
لغة ولغة ، أسرارها الغامضة الرهيبية ، وأمطارها الغزيرة
المدرار .

والعاصفة هوجاء صاخبة ، تمصف بأغصان السنديان
والعفص والشربين فتتايل الأغصان بين يديها ، كما تتايل الحسناء
بين ذراعي العاشق الحبيب .

والسيول جارفة ، تجتاح كل ما يقع أمامها في اندفاعها
المجنون من أعالي الجبال إلى الوديان في طريقها إلى البحر الواسع
البعيد الفسيح الأرجاء .

والجبال تنتصب في لبنان على رهبة وقوة وخشوع في وجه
العاصفة الغضوب ، تصد بهاماتها الرياح ، وتهزأ بعويلها وأنيبها
واندفاعها الصاخب الهادئ التواقي .

وأوت الذئاب وبنات آوى الى أوكارها ترقب انجساس
المطر المنهم دون انقطاع لتخرج الى الاحراج والى
المنازل الصغيرة والأكواخ المتواضعة باحثه عن صيد تسد به
الرمق .

وطال انتظارها ، فراحت ترسل عواءها أشبه بالأنين ،
فيزيد في كآبة العاصفة وعويل الرياح وعريضة السيول .
وترد عليها الكلاب نباحاً . كأنها تهددها بالدمار .
إلا ان نباح الكلاب ما كان إلا ليزيد الثعالب والذئاب رغبة
في العواء .

وهناك في أعالي جبال الشال ،
تحت أقدام أرز الرب الخالد ،
على قمة جبل شامخ متمرد رهيب ،
وسط غابة من السنديان ، كثيفة الاغصان ، وارفة الظلال
يحثم دير الراهبات .

انه دير كبير ، فسيح ، رحيب الجنبات ، يضم بعض
النساء الراغبات في الانقطاع عن ملذات الحياة وأفراحها
ومباهجها العذاب ، لينصرفن بقلوبهن وأرواحهن وأجسادهن

الى عبادة الخالق .

فكانهن يردن التكفير عن خطايا البشر جمعا .

وكن في صلاتهن الدائمة رائعات .

فهن ما عرفن الى ملذات الحياة طريقا .

وما سلكن سبل التعمم بالخيرات وإغراق الجسد الفاني

بالعبادة والراحة والهناء .

انهن على عمل متواصل وصلاة دائمة .

وإذا قدر لهن أن ينعمن بالراحة قليلا في ديرهن الهاديء

الساكن الهاجع في أحضان الطبيعة الفاتنة ، جلسن قرب

الموقد يروين قصص القديسين وأخبار الأنبياء والرسل

الابرار .

وتلك الليلة ، الليلة الحالكه السواد ، المطرة ، العاصفة ،

الصاخبة المجنونة ، أنهت الراهبات صلاتهن ، وجلسن قرب

الموقد المضطرم النار يروين القصص الروحية والاخبار المقدسة .

والكل التف حول الموقد يصطلي بناره ، ويقهر بها البزد

القارس اللاذع القوي .

الكل إلا الراهبة رفقة ، تلك الراهبة الدارجة في الستين من

العمر على تقى وورع وصلاة .

والراهبة رفقة كانت تقضي ليلها بالصلاة .

وصلاتها تختلف عن صلاة رفيقاتها الراهبات ، فهي ، وان

تكن تشترك معهن في الصلاة المفروضة عليهن في ذلك الدير
الموحش الكئيب ، تنصرف بعد الصلاة إلى التفكير العميق ،
البعيد ، السحيق ، المجهول القرار .

وتفرق رفقة الراهبة في تفكيرها .

أنها لتفكر بأشياء غامضة واهية خرساء .

وكل ما حولها أخرس أعمى أصم . لا ينطق بشيء ولا يرى
شيئاً ولا يسمع شيئاً .

وتحاول الراهبة خرق حجب هذه الأسرار العميقة الغور .
إلا انها تصطدم بذلك الحاجز المتين الحاجب عنها كنه
الحقيقة الناصعة ، حقيقة الموت والحياة .

وكثيراً كثيراً ما تنسكب دموع الراهبة رفقة على خديها
وهي تفرق في التفكير السحيق .

وتحاول رفيقاتها الوثوب إلى أعماق تفكيرها ، ورفع الستار
عن أسرار رفقة ، عن دافع دمعتها إلى الانحدار ، وروحها إلى
الانطلاق نحو الوجود والأسى والتفكير .

إلا انهن يعجزن عن انتزاع السر من شفقي رفيقتهن الوردية ،
فيحترمن صمتها ويخشعن حبال تفكيرها العميق .

وكانت رفقة تحتفظ برسم شاب وسم جميل تائه
النظرات .

وكثيراً كثيراً ما حاولت الراهبات معرفة اسم ذلك الشاب ، وصلت به رفيقتهم .

الا ان رفقة كانت قطن عليهن بمعرفة الحقيقة .
فهي تريد أن تستأثر بأسرارها وتحفظ بآلامها في أعماق
أعماق روحها الطاهرة ، الناصعة البيضاء .

وتلك الليلة .

فيا الراهبات يجلسن حول الموقد يصطلين بناره .
جلست الراهبة رفقة على طنفسة من صوف وانتزعت من
صدرها ذلك الرسم ، رسم الشاب الوسيم ، وراحت تحديق
بالرسم وتفرق في التفكير .

ولم يلبث تفكيرها السحيق ان انفجر دموعاً في عينيها .
وبدأت الدموع تنسكب على خديها السراوين .
واذا بها تجهش بالبكاء والنحيب وتصرخ في سكب الدموع
ولفت بكاؤها الراهبات المصطليات بالهيب المتصاعدة ألسنة
من الموقد كالحراب الحمراء الحادة النصال .

وتساءلن : ما بال الرفيقة رفقة تجهش بالبكاء ؟
وقلبن الشفاء .

ليس ثمة من يدري .

ووجهت الراهبات السؤال الى رفيقتهم الراهبة
« شمونة » ، وهي كبيرات الراهبات سناً ، وأشد من صداقة

للراهبنة رفقة : ما بال الراهبة رفقة تمن في سكب الدموع ،
يا أختاه يا شمونة ؟

وقالت شمونة :

- لست أدري ، لقد مضى عليها ثلاثون سنة في هذا
الدير وهي على هذه الحال . كل ليلة ، عندما يجلس للتسوية بعد
الصلاة تنزوي الأخت رفقة حاملة هذا الرسم وتسبح في يم من
الدموع .

وتساءلت الراهبة سارة :

- ولكن ما هي قصتها؟ وماذا تهم أبدأ بالنعيب
وبالبكاء ؟

وعادت الراهبات الى قلب الشفاء :

- لسنا ندري ، لسنا ندري .

وقالت راحيل :

- هيا بنا نسألها علها نقص قصتها علينا . يجب ان نعرف
سرها الدفين ، لعلنا نخفف عنها عبء الآلام وثقل الهموم
والدموع .

قالت شمونة :

- لن تجيب طلبنا . أنا أعرف رفقة حق المعرفة . انها لتهم
أبدأ بالصمت العميق ، فهي تريد أن تطبق قلبها على همومها لئلا
تتصاعد تلك الهموم ناراً محرقة تكوي فؤادها وتذيبه بلهبه
الوثاب .

فعدت راحيل الى الكلام لتقول :
سنلح عليها في الطلب ، هذه اختنا وعلينا أن نشاركها
أحزانها وأوهامها ودموعها .
إلا إن شئونة مانعت في الأمر ، وخالفت الرأي :
- لا ، لا ، دعوها تذرف الدموع ، علّ دموعها تطفىء نار
قلبها المضطربة كاضطرام لهيب هذا الموقد المحموم .
وأصرت راحيل على التخفيف عن عاتق الرفيقة الحزينة .
ونفضت سائرة نحو رفقة ، داعية رفيقاتها الراهبات الى
اللحاق بها .

وسرن الى رفيقتين .
وكانت رفقة قد بدأت تمسح دموعها بئديها الأسود ،
فاقترب منها على حذر واحترام .
وصمتن ، وقد اقترب منها .
ورفعت الراهبة نظرها الى رفيقاتها ، وكأنها تسألهن: ما
يكن يا رفيقاتي ؟

وأمسكت راحيل بيد أختها وتمتمت :
- رفقة ... رفقة ... ما بك يا رفقة ؟ لماذا تبكين ؟
وأرسلت الراهبة رفقة زفرة ملتبهة محرقة ، وتمتمت :
- دعيني ، دعيني يا راحيل
وشجعت كلمات راحيل رفيقتها الراهبة سارة ، فتقدمت
من رفقة تقول بحنان :

- لا ، لا ، لن ندعك يا اختنا رفقة ، نريد أن نعلم سبب

بكائك ونحيبك .

وقالت شمونة :

- علنا نؤاسيك ونخفف عنك مصابك الألم يا اختنا .

وعادت رفقة الى إرسال الزفرات الملتهبة .

وقالت : مصابي ؟ . لا ، لا ، سأحمل مصابي وحدي على

عاتقي وسأسير به وحدي في طريق الحياة الرهيب المرعب

البعيد الى المنتهى . ليس ثمة من يستطيع أن يحمل مصائب

الآخرين على هذه الارض يا رفيقاتي . لكل مصابه ولكل آلامه

ولكل دموعه على هذه الأرض ، لكل دموعه .

وتتمت شمونة :

- لا يا رفقة ، على الانسان أن يشارك رفيقه آلامه ودموعه

فيخفف عنه عبء الآلام ومرارة الدمع ، أطلعينا على سررك يا

اختنا فنساعدك على المسير في طريق الآلام وفي اجتياز بحار

الدموع الواسعة الأرجاء .

وقالت راحيل :

- نحن نريد أن نمزج دمعا بدموعك يا رفقة نريد مشاطرتك

الألم .

وتتمت رفقة :

- ما أجل الدمع المزوج بالدمع ، والألم الذي يختلط بالألم .

إلا ان مصابي نار وحمم يحتاج الى دموع غزيرة ، غزيرة جداً ،

يحتاج الى دموع مسلوخة عن القلب منتزعة عن الروح .

فأمسكت شمونة بيد رفقة وقالت :

– تعالي تعالي يا رفقة نجلس قرب الموقد، فالبرد قارس ،
والعاصفة هوجاء ، والصقيع يغمر هذه البقاع الهاجعة في أحضان
الليل البهيم .

وتمت رفقة :

– دعيني يا شمونة دعيني ، لماذا تريدن أن تحملي الي ذكريات
الماضي البعيد ؟ لماذا تريدن ان ترجعي بروحي الي ذلك الزمن
السحيق المدى ، المغمور برماد السنين وضباب الايام ، دعيني
دعيني .

إلا ان شمونة ورفيقاتها لم يدعنها .

فأمسكن بيدها .

وتقدمنها الي الموقد .

وجلسن حوله .

وأجلسن رفيقتهن رفقة قريبن .

ورحن يصغين الي كلماتها المغمورة بالشوق ، والحب ،

والحنان ، والحنين .

وبدأت الراهبة رفقة تروي قصتها لرفيقاتها ، قالت :

الفصل الاول

« كان ذلك عام ١٩٢٠ عندما كان الشاب بهاء . . »
وأغمضت الراهبة رفقة عينيها وصمتت .
و كأنها تستعيد في ذاكرتها صورة الشاب بهاء .
و كانت الدموع قد عادت الى الانسكاب على خديها فمسحتها
بمديلبها وأكملت .

« كان ذلك عام ١٩٢٠ عندما كان بهاء ، بهاء العواد ، يعيش
في كوخ متواضع كثيب كبير الجناح خلع عليه الفقر المدقع
وشاحاً كثيفاً من ظلامه ، وغمرته الفاقة يجناحيها قهراً تحتها
على ذل وبؤس وانكسار .

وبهاء العواد كان فقيراً ، فقيراً جداً ، فقيراً إلى أبعد حدود
الفقر البعيد السحيق . لم يكن يملك ثمن رغيف يسد به رمقه ، ولا
ثمن ثوب يرد عن جسده النحيل البرد القارس العاصف في جبال
لبنان الشتاء ، وبالرغم من فقره الشديد فقد كان دائم الابتسام ، لا

يفكر بسوى هياته الثانية ، تلك الحياة المجهولة التي يعمل
الانسان طيلة حياته هنا على هذه الارض في سبيل الوصول اليها .
لقد كان بهاء العواد يعيش بروحه ولروحه لا لجسده ولا يحسده ،
وكان يقضي أكثر أوقاته بالصلاة ، أما ما بقي من هذه الاوقات
فهو يقضيه في العمل ...

لم يكن بهاء العواد عاملاً في حقل ، ولا صناعياً في مصنع
ولا موظفاً في شركة ، ولا تاجراً في متجر .
لقد كان شاعراً بعيد الحس عميق الشعور مرهف الاحساس ،
كان يصور اختلاجات روحه بقلمه السيال ، ويرسم أفكاره
البعيدة المدى على أوراقه ، ثم يعود لينشق منها شذا الحياة
الناضجة ابداً بالحب وبالجمال .

ولم يكن شعر بهاء ليرد عنه شبح الجوع الواقف ابداً في بابه
على تشاؤم وإنذار ، ولم تكن قصائده الطويلة العصماء لتبعد عنه
الفاقة والبؤس ، وكان عليه أن يتخلى عن شعره أو عن يسره ،
فاختار الشعر والفقر وتخلى عن اليسر والمال .

وهناك في ضواحي العاصمة اللبنانية الصاخبة الهائلة المتمردة
المجنونة كان يجثم كوخ بهاء العواد .

وكان ثمة قرب كوخه قصر شامخ ، تزينه النفاثس والروائع
والتحف الثمينة الغالية .

وكان كوخ بهاء العواد حيال القصر كالحادم الوضيع الذليل
أمام السيد الجبار .



ولم تكن عينا بهاء لترتفع الى القصر ، إلا ان الدين في القصر
كانوا يطلون كل يوم على هذا الشاعر البائس الفقير ليشاهدوه في
جلسته إلى طاولته المخلمة العرجاء مكباً على أوراقه البيضاء،
يسود وجهها بقلمه السيل.

ومن كان يقيم في القصر الشامخ المتيف ؟
كان هناك رجل غني ، غني جداً ، وكريمته الحسناء الدارجة
في العشرين من العمر على تبه وحسن وفتنة وجمال .
وبدا من الفتاة الحسناء سلس العبود انها تهيم بجوارها الشاعر
الموهوب بهاء العواد .

فهي لا تبرح النافذة المطلة على كوخ بهاء .
وتجلس سلس الى النافذة تمتع نظرها بمرأى وجه بهاء وقد
تيمها الحب العنيف وغمر قلبها الحنون . النابض أبداً بالهوى،
المغمور دائماً بالحب والغرام
وطال جلوس سلس الى النافذة.

وعزمت على الوثوب الى قلب الشاعر الحبيب .
وأيقنت ان احتلال قلب بهاء ميسور لديها .

ولماذا لا يكون ميسوراً ، وهي على قمة الغنى الفضفاض
الرحيب ، وهو في قعر وادي الفقر المذيب ؟
وراحت ترقب الفرص السانحة للوثوب الى ذلك القلب
لعامر بالمحبة والنزول فيه على الرجب والسعة .
وأى فتاة لا تتقاد الفرص سانحة صاغرة اليها عندما تريد ؟

اي فتاة لا تصل الى أهدافها اذا ما تطاولت الى تلك
الأهداف بصبر وحكمة واعتدال ؟

وسلمى كانت قد استمعت الى كثير من شعر جارها بهاء
العواد .

وكانت قد تذوقت شعوره في شعره ، وحنينه في حنانه ،
وأهواءه في هواه .

وأحبت فيه تلك الروح الشاعرة الهائلة في القضاء على شعور
رحيب وأمل بعيد واسع الأرجاء .

وما كان شعره المتدفق حناناً ورقة ولهيباً إلا ليزيد سلمى
العبود تعلقاً بالجار العزيز .

واستطاعت سلمى ان تثب الى دار بهاء .

الى داره ؟ .. لا ، الى كوخه المتواضع الحقير القائم قرب
قصر أبيها على ذل وانكسار .

وكانت تجلس اليه مستمعة الى قصائده الرائعة .

واستطاعت أن تحمل بهاء على نظم بعض القصائد فيها ،
وهي الفتاة الجميلة الفاتنة الحسناء .

والشعراء يهيمنون أبدأ بالحسن والجمال .

وانهم ليزيدون في شعرهم الجمال جمالاً والحسن رونقاً وبهاء .
وبدأت الصداقة المتينة تنسج خيوطها الدقيقة المتينة حول

القلبين ، قلب سلمى وقلب بهاء .

وكانت سلمى تجدد في بهاء العواد آمالها الوارفة وأحلامها

النديّة العذاب .

أما بهاء فكان يرى فيها الصديقة المخلصة الوفية .

وبوم جاءتة طالبة اليه أن يقرر مصيرهما ، أن يبسط لها رأيه في الزواج نظر الى الإفق البعيد وتمتم : كل ما تحبّه لنا الأقدار حسن في عيني . ما دمت لا أستطيع أن أجعل من الظلام نوراً فاني سأظل أرى الجمال في الظلام ريثما يفتح النور عينيّ على الجمال ، وما دمت لا أستطيع أن أحلّق في الفضاء فأنا ما زلت أرى الحرية في الأنجذاب الى الارض ريثما تطلق الأرض قدمي الى الفضاء . وما دمت لا أتمكن من تذوق لذة الموت فأنا سأظل أكتوي بمرارة الحياة وأخالها الشهد ، الى أن تغمر حلاوة الموت شفتي .

قالت : والزواج ماذا تقول فيه ؟

قال : أقول ان كل ما ترسمه لنا الأقدار من ولادة وزواج وموت حسن في عيني .

وصفقت سلى طرباً ، بهاء لا يمانع في الزواج منها ، ستكون له ، ستعيش معه في دار واحدة ترفرف عليها السعادة بأجنحتها وتغمرها بأنوارها الساطعة البهية .

ولكن هناك والدها ، والدها لن يوافق على زواجها من هذا الشاعر البائس الفقير .

ما العمل ؟

وانصرفت سلى الى التفكير .

انها لتفكر في الطريق الذي يوصلها الى اقناع والدها .
عليها ان تحارب على جبهتين لتصل الى النصر المبين ، جبهة
انتشال بهاء من الوهدة التي يعيش فيها ودفعه الى العمل ليصل
الى المال ، وجبهة إقناع الوالد الكريم بالموافقة على زواجهما .
وراحت تمهد الطريق .

وشهرت الحرب في الجبهة الاولى ، فشخصت ذات صباح
الى كوخ بهاء وقلبها عامر بالأمال والاحلام الندية الخضراء .
وكان بهاء كعادته ، جالسا ينظم قصيدة عشاء .
ووثبت اليه على ابتسامة طافحة بالبشرى تقول :
صباح الخير يا بهاء .

ونظر اليها في شوق رحيب وتمتم : سلى ؟ .. صباح الخير .
قالت : دائما وحيد ؟
قال : أجل دائما وحيد .

ونظرت الى الطاولة المنكب فوقها على تدوين أبيات شعره
فاذا بكأس خمر تشع أمامه ، فأمسكت بالكأس لتقول : دائما
هذه الكأس ؟

وأمسك بالقلم يتمتم : ودائما هذا السيف .
وقهقهت سلى ، وقالت : يا لأطوارك الغريبة يا بهاء .
قال : أأكون غريب الأطوار يا سلى ؟
قالت بحزم : بهاء ! . دعك من هذه الأوهام التي تعيش فيها .
دعك من هذا الظلام . القاتم السواد الذي تحبس نفسك فيه ، ما

لك وللنظم ولتدوين الآراء والأدب والشعر . هذه خرافات ،
خرافات وأوهام لا تجدي نفعا ولا تطعم خبزاً ، عد الى رشك
يا بهاء ، انظر الى ثيابك البالية ، انظر الى غرفتك او بالأحرى
الى كوخك الحقير الذي تعيش فيه ، نظرة واحدة الى الحياة
التي تحياها ترجع بك الى الصواب .

ووجم بهاء .

وراح ينظر الى ثيابه والى كل ما في كوخه من أثاث بال
قديم العهد محطم . وهمس : ثيابي البالية ؟ كوخى الحقير ؟ .. ان
كوخى الحقير هذا يا سلمى لا يضم من بهاء العواد سوى الجسد ،
الجسد فقط ، أما روحي ، روحي المجنحة الهائمة الحيرى فهي
طليقة الجناح لا يقدها قصر ولا يحنو عليها كوخ ، انها لتسبح في
الفضاء ، انها لترتفع الى الأعالي ، انها لتغفو هناك ، هناك في
الضباب وعلى متن الأثير . لا تنظري الى بيت الجسد يا سلمى بل
انظري دائماً الى مسكن الروح . الويل كل الويل لذلك الانسان
الذي يُقيم جسده في قصر ناعم الرياش ويسجن روحه في جحيم
محرق من المادة والذهب والشهوات ، وهنيئاً هنيئاً يا سلمى لمن
يسكن الاكواخ ويطلق روحه في الفضاء تسبح بين الغمام وتتشق
عبير الحرية ، وتستحم بنور السعادة والانعتاق .

قالت : ولكن هل يستطيع الانسان أن يتحرر من المادة
والمادة جزء من كيانه ؟

قال : الانسان يستطيع ان يحطم قيود المادة بمطارق التحرر

ساعة يشاء ، وما الجسد سوى شعلة من الشهوات يستطيع
الانسان أن يخمدها بالارادة البشرية . متى ينظر الانسان إلى
أخيه الانسان بعين الحنان والشعور فلا يجعل من المادة منظاراً
ومن الذهب نوراً ، ومن المال عيناً يثب فيها إلى خفايا قلب أخيه
الانسان ؟

فتقدمت منه فلامس شعره الجميل بيدها البضة الناعمة
البيضاء .

وتتمتم : بهاء ! فتش لك عن عمل تحيا به حياة هانئة
سعيدة ، ويضمن لي ولك السعادة والهناء في المستقبل القريب .

قال : بشس سعادة تقوم على المال يا سلى . ما قبعة المال في
الحياة إذا كنا لا نستطيع أن نشترى به كل ما نريد ؟ قولي لي
يا سلى أتبيع عينيك بأموال العالم كلها ؟ قولي ، أتستطيعين
أن تشترى لقلبك ذرة من سعادة بكل ما يملك أهلك من خيرات
هذا العالم الفاني ؟ إذا كنا لا نستطيع أن نشترى بالذهب لا
المادة ولا الروح فلماذا نخبرته إذن ونحرص عليه حرصنا على
الحياة ؟ أنا غني يا سلى ، غني جداً ، غني لأنني لا أجمع ثروتي
في صندوق صغير بل أطلقها في الفضاء الواسع الرحيب . إنني
أملك كل شيء على هذه الأرض ، الراحة ، الهناء ، الضيق الحلي ،
الروح الطاهرة ، الحنان ، الشعور ، الدموع ، الانعتاق ،
الاشتياق إلى الأعالي ، أما والدك ، أما أولئك الأغنياء الذين
يحشون أفواههم بالذهب ويتخمون بطونهم بالمال فهم الفقراء في

الحياة . وإني لأشفق عليهم من فقرهم ومن جوعهم ومن عطشهم .

فمادت إلى إقناعه .

وطوقت عنقه بذراعها .

وتتمت : بهاء ! .. أنا أحبك يا بهاء . أتدرك قيمة هذه الكلمة تخرج من فم فتاة لتنسكب في أذن شاب عقدت عليه الآمال والأخلام . لا تفجعني بأعز أماني يا بهاء ، أحبك أحبك أحبك !

واغرورقت عيناها بالدموع .

فهي تدرك أي وهدية عميقة الغور تفصلها عن هذا الجيب المتمرد على الشرائع البشرية والقوانين والبدساتير .

وتدرك كل الإدراك أن لا سبيل إلى الزواج من بهاء ، إلا وقد عاد إلى رشده ، وانصرف إلى عمل يستطيع أن يؤمن من ورائه عيشة .

وأمسك بهاء بيدها ، وقد أشفق عليها ليقول : سلمى ! . . من يسع إلى الذهب يصل إلى التراب ، ومن يهرب من الذهب يلحق الذهب به . وقد قال الرسول العربي الكريم : « ويرزقكم الله من حيث لا تعلمون » .

وإذا بالبواب يطرق ،

وقبل أن يقف بهاء ليفتح الباب كان صديق بهاء الحميم بديع

النادر يشب من الباب على فرحة واتسراح .

ولم يلق التحية .

بل تقدم من صديقه بهاء وهو يقمقه :

وقال بهاء : قبلني ، تعال قبلني يا بهاء .

فابتسم بهاء .

ووجت سلمى .

وعاد بديع إلى طلب القبلة من صديقه بهاء : قلت لك قم

قبلني ! .

- ولكن لماذا تطلب قبلة من صديقك يا بديع ؟ .

قال : لك عندي بشري سارة ، سارة جداً .

قال بهاء : هات البشري إذن .

قال : لا ، القبلة أولاً .

وبديع شاب خفيف الروح دائم المرح والسرور ، وكانت

رفيق بهاء الدائم ، فهو صديقه الحميم ورفيقه الوفي .

وتقدم بديع من بهاء عارضاً عليه خده للقبلة .

وقبل بهاء صديقه بديع .

وتقدم بديع من سلمى على مهل ليقول :

وأنت ألا تريدن أن تسمعي الخبر السار يا سلمى ؟ إذا

أردت الاستماع اليه فهاتي قبلة .

وضحكت سلمى .

وضحك بهاء .

وعاد بديع إلى التبشير : خبر سار .. سار جداً
جداً .

قال بهاء بغضب : وأخيراً يا بديع ؟

قال بديع : وأخيراً .. وأخيراً وأخيراً مات عمك .

وصعق بهاء : عمي مات ؟ أهذا هو الخبر السار يا رسول
الشؤم ..

قال بديع : أتجهل ما قيمة هذا الخبر ؟ ألا تعلم ما ترك لك
عمك من الثروة والمال والذهب ؟

ونتم بهاء : سلام عليك يا روح عمي .

ونتمت سلمى على فرحة وابتسام : « ويرزقكم الله من حيث
لا تعلمون ... »

وعاد بديع إلى القهقهات .

فهو على فرحة وغبطة وسرور .

وكان يقفز من مقعد إلى مقعد ومن زاوية إلى زاوية وقهقهاته
تملأ جدران الكوخ المتواضع الكئيب .

ونظر إلى سلمى يقول : خمسون ألف ليرة ذهبية ، قرنتان
كاملتان وقصر فخم شامخ منيف في وادي الجحيم .. هذه هي

تلك الثروة المتواضعة التي تركها شيخ قصر الجماجم عم بهاء
أيتها الأنسة سلمى ! .

ووجعت سلمى على دهشة وإعجاب .

وتتمت : ماذا تقول يا بديع ؟

وتتم بديع : والله العظيم أقول الحق ..

ووثبت سلمى إلى حبيبها بهاء تطوقه بذراعيها وتتمتم :

بهاء ، أرأيت نعمة الله تهبط عليك من السماء . لقد أصبحت
غنياً يا بهاء ، لم تعد بحاجة إلى العمل ، فالذهب يتدفق بين يديك
وقد انتقلت هذه الثروة الضخمة إليك .

وتتم بهاء دون أن يحول نظره عن الأفق من النافذة العبوس،
وددت لو بقيت فقيراً وبقي عمي على قيد الحياة ..

وراح بديع يرسل قهقهاته عالياً ..

وقال : إنك مجنون يا بهاء .. قل لي بربك أي نفع من حياة
شيخ في الثمانين من عمره يملك كل هذه الثروة الطائلة ويضن على
ابن أخيه بالدرهم وبالرغيف . قل لي يا بهاء ، هل جاد عليك
عمك يوماً بكأس ماء ؟ ألم يكن يعرف أنك تعيش في فقر
وبؤس وشقاء ؟ .

وصمت بهاء .

وصمت سلمى .

وانقطعت قهقهات بديع .

وبعد صمت طويل قال بهاء : لقد كان عمي بخيلاً . نعم
هذا صحيح ، ولكن من هو المسؤول عن البخل الكامن في
قلب عمي ؟ أو أقول لكما الحق ؟ . إنه المال ، أجل المال هو
المسؤول عن زرع البخل والقساوة والمكر والخداع والشر في
قلوب البشر . ليس ثمة ذرة من رحمة ولا حفنة من شفقة في قلبه
غني . أما الفقير فالشفقة تنمر روحه وتضيء الظلام في قلبه .
ويظل الانسان مرتاح الضمير ناعم البال ، يحتل قلبه الحنين
ويغمر روحه الحنان الى أن يتدفق المال الى صندوقه . وعندئذ ،
عندئذ فقط ، تتحول موجة الحنان في قلبه الى قساسة ، ونور
المحبة الى نار البغض . . لو تواري المال عن الحياة لما بقي أثر
للشر ! .

وابنسمت سلمى على هزة وسخرية .

قالت : وما هي قيمة حياة البشر دون المال يا بهاء ؟ .

وأرسل بهاء العواد زفرة محرقة ،

وتتم : البشر ؟ ومن هم البشر ؟ البشر كالأممك يا سلمى ،

القوي يتلعب الضعيف والغني يستعبد الفقير .

والتفت بهاء الى بديع ليقول : بديع ا يا صديقي الحميم ا .

أنا لن أمس فلساً واحداً من ثروة عمي ا .

وذعر بديع : ماذا تقول ؟ ماذا تقول يا بهاء ؟

قال بهاء : أجل ، سأوزعها كلها على الفقراء ... الفقراء بحاجة إلى المال المتكديس في صندوق عمي . أما الأراضي والحقول والكروم والبساتين فستوزع على الفلاحين . . . هذه هي مشيئتي .

وظهر الذعر في عيني سلمى ،

وتقدمت من بهاء تقول : والجوع ؟ ألا تفكر بالجوع . يا بهاء ؟ .. هلأ أبقيت من ثروة عمك على نذر قليل يقيك شبح الجوع ويدفع عنك الفاقة ؟ .

قال بهاء : إن ذاك القوي القدير المحتجب عن عيوننا وراء الأثير ، ذلك الأب الرحيم الشفوق لن يهمل أمري . من يخلق الانسان من العدم يرسل إلى الانسان رزقه . مسكين الانسان يا سلمى . يخيل اليه أن يده تدفع عنه الجوع ، تدفع عنه المصائب والويلات ، في حين أنه على ضلال . هناك يد خفية تدير هذا الكون وتغمر الانسان بكل إحتياجاته على هذه الأرض : « أقول لكم الحق ان شعرة من رؤوسكم لا تسقط إلا بإرادة أبي الذي في السماء » هكذا قال يسوع المسيح .

قالت سلمى : والغد ؟ ألا تفكر بالغد ؟

قال : « لا تفكروا بالغد ، لأن الغد يفكر بكم » . هذا ما قاله المعلم الصالح .



قالت سلمى : لن أدعك توزع أموالك على الفقراء يا بهاء .
لا ، هذا مستحيل . مستحيل .

قال : سلمى ! من يعطِ الفقير يأخذ من الله .

قالت : لا تكن مجنوناً يا بهاء ! لا تكن مجنوناً يا حبيبي ...

قال : سلمى .. سلمى !.. أنا جزء لم يكتمل بعد ، أنا
أشعر بأن روحي تتوق الى معانقة روح خفية لا أراها ولا أحس
بها ، ولا أعلم أين هي . ومن أجل هذه الروح سأطوف معالم هذه
الحياة . لكل روح رفيقة في الحياة . وقليلة هي الأرواح التي
تلتقي برفيقاتها على هذه الأرض . أما هناك ، هناك في العالم
الثاني حيث لا ألم ولا دمع ولا شجن للابرار ، هناك تلتقي
الأرواح وتتعانق وتهيم في الأزل على نشوة عامرة لا تحلم بها عين
ولا تسمع بها أذن ! ..

وضحك بديع وتمتم : أنت مجنون ، مجنون ، مجنون ! ..

والتفت بهاء إلى صديقه بديع يقول : بديع ، سأعهد اليك
بتوزيع ميراث عمي على الفقراء أمثالي . لا تبقى سوى القصر ،
قصر الجماجم . هذا القصر سيكون مأواي . هناك سأعيش
وحيداً في ذلك القصر النائي الموحش البعيد أستقبل الشمس كل
صباح عند بزوغها ، وأودعها كل مساء عند رحيلها ، أشارك
الاطيار أفراحها وأغانيتها ، وأشاطر الجدائل تساييحها وترانيمها

المقدسة . سيكون كل شيء لي هناك . النور والهواء والجمال
والزهور والأشجار والأغصان والصخور والجداول والينابيع .
هذه هي الثروة في الحياة ، وهذا هو المال يا بديع ! .

وتتم بديع : مجنون ، مجنون ، مجنون ! .

واستأنف بهاء الكلام قال : غداً سأترك هذا الكوخ وأتوجه
إلى قصر الجماجم ولن أعود إلى هنا يا سلى .

قالت : بهاء ! لمن تتركني هنا ؟

قال : إذا أراد الله سنلتقي ثانية يا سلى . لتكن مشيئة
الله ، لتكن مشيئة الله .

ووثب بديع إلى بهاء على دعر يقول : أنت لن تذهب إلى
قصر الجماجم ، هنا ستظل . أتجهل ما يجري هناك يا بهاء ؟ .

قال بهاء : وماذا يجري ؟

قال بديع : الارواح الشريرة تحتل قصر الجماجم ، وهي
ترقص وتعربد كل ليلة في أرواقه وعلى شرفاته .

وتقدم بديع من بهاء همس في أذنه : ويقال ان الارواح
الشريرة فتكت بعمك يا بهاء ، لا سيما ان جثته اختفت بعد
موته بقليل . ليس ثمة من يدري كيف اختفت ، الارواح حملتها
وطارت بها إلى عالمها المجهول !

. وتمم بهاء : خرافات ! خرافات .

إلا ان بديعاً لم يكن ليؤمن بالخرافات قال: الشائعات كثيرة
حول قصر الجماجم :

« الأرواح تظهر ليلاً في القصر ، وتعوي كالذئاب ،
فيذهب صدى عوائها في تلك الوديان صغيراً مرعباً مخيفاً... »
وكان عم بهاء شيخ قصر الجماجم يشاهد تلك الأرواح كل
ليلة تقفز في جنبات القصر فترتعد فرائصه...

وقد روى شيخ قصر الجماجم قصة الأرواح الراقصة في
قصره لكثيرين من أصدقائه . وكان شيخ قصر الجماجم يعيش
وحيداً في القصر ، ولم يكن ثمة قريب له إلا بهاء ، وبهاء يابى
أن يعيش عائلة على عمه .

فقد اختار حياة الفقر والبؤس والشقاء .

وكان ظهور الأرواح في قصر الجماجم قبيل مصرع الشيخ
بثلاث سنين .

وكانت المرة الأولى التي ظهرت فيها الأرواح الشريرة للشيخ
ذات ليلة من ليالي كانون البارد القارس العاصف...

وكان الشيخ يجلس قرب الموقد الملهب الانقباس المتصاعد
اللهب يصطلي ويطرد بالنار البرد عن جسده النحيل .

وسمع طرقتاً متواصلاً على باب القصر الخارجي ، فحمل
المصباح الزيتي الشاحب النور وسار إلى الباب يفتحه ، إلا أنه
لم يجد أحداً على الباب ..

وعاد إلى الموقد يجلس قربه ، ليعود الطرق إلى الباب مجدداً
وأسرع الشيخ إلى فتح الباب .
إلا أنه لم يجد أحداً ..
وكانت الامطار تنهمر بغزارة .
والرياح تعصف ، وتعريد ، وتولول في ذلك الوادي المقفر
الرهيب .

فراح الشيخ يحدق في الظلام لعله يرى مسافراً ضل السبيل ،
أو معازراً يريد الاحتماء من العاصفة والسيول ...
ولكنه لم ير مسافراً .
ولا رأى معازراً .

بل مارداً جباراً يقترب من باب القصر مع العاصفة الهوجاء .
وكانت عيناه من نار ولسانه من لهب ، فخاف الشيخ وأوصد
الباب وأسرع بالعودة إلى داخل القصر ..

وعندما جلس قرب الموقد ليصطلي شاهد المارد الجبار
أمامه يرتدي الثياب السوداء .. القاتمة السواد ، ويقهقه .
فدعر وخاف وأغمي عليه .

وعندما استفاق كان الليل قد توارى ، والفجر بدأ يوشح
ثوب الطبيعة الجميل .

وكانت العاصفة الهوجاء قد همدت .

والرياح المولولة قد هدأت .

والأمطار انقطعت .

ولم يشاهد أثراً للدارد الجبار ..

ولكن المارد استأنف الظهور في الليلة التالية ..

فقد عارِد الطارق على باب القصر .

وخيل لشيخ قصر الجاجم ان أحد الفلاحين جاء يحتمي في

قصره من الامطار ، فوقف ينادي بأعلى صوته : « من الطارق ؟

من الطارق ؟ »

ولكن لم يكن ثمة من يجيب ...

وكان الشيخ الحائر الواجم يحمل المصباح الزيتي المبعوح

بيده وهو ينادي ..

وإذا بعاصفة هوجاء تهب فتطفئ المصباح .

وأصبح الشيخ في ظلام قاتم السواد ، مدلم ، دامس .

وأحس بالخوف يداعب فؤاده .

وازداد اضطرابه ، وعويل العاصفة الجنونية يتكسر في

أذنيه ، ويحمل اليه أشباح الأرواح التي كان قد سمع عنها

الكثير .

وإذا بأصوات خفيفة تنطلق مع العاصفة المعريدة المتمردة

المجنونة .

وكانت تلك الأصوات أشبه بعواء الذئاب ، وفحيح

الافاعي .

وكاد يحن ، يحن ...

وحاول العودة إلى الورا .

لقد حاول الدخول إلى الفصر ، إلا أنه لم يستطع إلى ذلك
سبيلاً .

وشعر برحبتيه تصطكان من الفرع ...

وراح يحدق في الظلام محاولاً اختراق ستاره الكثيف ..

ورأى .

ماذا رأى ؟

أقد رأى الأرواح الشريرة المجنحة ، ذات القرون ، الطويلة ،
والأسنان المسنونة اللامعة ، والأيدي البارزة الأصابع المرفوعة
في الهواء ، وكانت تلك الأرواح تقفز كالشعالب .

وكانت ترسل عواء وأنيناً ونواحاً وهي تتقدم منه .

فاشتد دعر الشيخ الواثق إلى الثمانين من عمره على وهن

وضعف وارتعاش .

وحاول الصراخ .

لقد حاول الاستنجاد ، إلا أنه لم يستطع ذلك ، ووقع على

الأرض فاقد الرشدا .

وعندما استفاق كان الليل قد قارب الانتهاء ، والفجر بدأ

يتأهب للبروغ بأنواره الوردية الرائعة الجمال .

وكانت العاصفة قد بدأت تسكن .

وانقطع انهار الامطار ، وتدفق السيول .
وبدأ الفهم ينقشع في القضاء .
فجلس الشيخ المسكين متمتماً : « أين أنا ؟ ماذا حدث ؟ » .
واستعاد في ذاكرته ما حدث له ..
وعاوده الذعر .
إلا انه راح يتمم بعض الآيات المقدسة .
ونفض يجهد ، ودخل الى القصر ليستلقي فوق سريره واهي
القوى وهو يلهث من الخوف والعرق البارد يتصبب من
جبينه .
وفي الصباح جاء الفلاحون الى القصر يسألون عن سيدهم .
وما ان شاهدوه على تلك الحال حتى اسرعوا إلى استدعاء
الطبيب .
وجاء الطبيب .
ومده بالعقاقير والأدوية والمصول .
وأعلن الطبيب أن لا خوف على حياته وان قلبه يستطيع
المقاومة والصمود .
وروى الشيخ للفلاحين والطبيب ما شاهد في الليلة السابقة
فضحكوا منه .
وأتهموه « بالخرف » : أنه مجنون . الشيخوخة تمكنت منه
وعبثت بعقله ويحسمه وبكيانه .

إلا ان اولئك الضاحكين من شيخ قصر الجماجم وجموا وقد
شاهدوا في الليالي التالية ما شاهد الشيخ .

فقد خاف الشيخ المسكين ودعا اثنين من الفلاحين للنوم
عنده في القصر .

ونام أحدهما فارس الجواد أمام الباب الداخلي .

ونام الثاني سليم عساف أمام غرفة الشيخ .

ونام الاثنان ملء عيونهما وقد أيقنوا ان كل ما قاله الشيخ
خرافات ووهم وخيال .

وقبل مطلع الفجر البعيد بقليل سمع فارس الجواد صغيراً
مخيفاً مقبلاً من الغابة السوداء .

واستفاق على دعر .

وخيل اليه ان ثمة عاصفة تقتلع الاشجار وتعبث بأغصانها .

وراح ينظر الى الباب بخوف ، وقد أيقن ان العاصفة المصفرة

الهوجاء ستعطم الباب .

إلا ان الباب فتح على مصراعيه فجأة ، وكان ثمة مثة يد

فتحته .

وشاهد أشباحاً سوداء تتخطى عتبة القصر ، مرساة صفيها

المخيف ، وكانت تلك الاشباح القائمة السوداء تقفز ..

انها لتقفز قفزاً ولا تسير كما يسير الانسان

واستلقى فارس في سريره ، وأسناناه تصطك من الفرع .

أما سليم عساف فقد أطلق ساقيه للريح، وقد شاهد الأشباح
تحتل القصر على الرحب والسعة .

ومنذ تلك الليلة انتشر نبأ الأرواح الشريرة التي تحتل قصر
الجماجم وتحاول الفتك بكل من تسول له نفسه الدخول إلى
القصر .

وابتعد الجميع عن القصر ، القصر المسكون .

الكل هجر القصر .

الكل إلا الشيخ العنيد عم بهاء .

فقد أبى الشيخ أن يتغلى عن قصره .

وتعود الشيخ مقابلة الأرواح والاستماع إلى عويلها وأنينها
وصراخها .

ولم تعد تخيفه ...

وألف النوم ، والأرواح الشريرة ترقص حول سريره .

وكان يروي للفلاحين كل يوم أخبار الأرواح ، وهو يبتسم ،

كأنه يروي قصص الحب والغرام .

وذات صباح اختفى الشيخ ...

استفاق الفلاحون فلم يجدوا للشيخ أثراً ، لا في القصر ، ولا

في خارج القصر ، ولا في جميع أنحاء وادي الجماجم .

وذعروا ...

وأيقنوا ان الارواح الشريرة فتكت بالشيخ المسكين وحملت
جثته وطارت بها الى عالمها البعيد المجهول القرار .

وأقاموا على ذعر : اليوم فتكت الارواح بشيخ قصر
الجماجم ، وغداً ستفتك بنا واحداً واحداً .

لن تبقي على واحد منا .

الكل سيذهب ضحية الارواح .

وبدأ الفلاحون ينزحون عن حقولهم ، وقد دب الخوف في
نفوسهم ، واحتل الرعب قلوبهم .

وانتشرت أنباء الارواح الشريرة في تلك الربوع .

وبدأ البحث عن بهاء العواد الوريث الوحيد لشيخ قصر
الجماجم .

وعلم بديع ... صديق بهاء الحميم بالأمر فأسرع الى صديقه
حاملاً له الخبر .. السار .. السار جداً .. ،
وأصر بهاء على الذهاب الى قصر الجماجم :

وحاول بديع إقناعه بالعيش في عاصمة لبنان ، في بيروت ،
حيث النوادي ، واللامبي ، والمراقص ، ووسائل الترفيه
والمجون .

وحاولت سلمى إقناع حبيبها بالبقاء قريباً .

فهي تأتي البعاد عنه .

انها لتريد أن تظل قريبه .

سلى تحب بهاء .

تحبه وتتفانى في حبه وتأبى الانفصال عنه .

ووثبت سلى الى بهاء تقول : بهاء ! أنت الآن غني ، غني جداً ، ووالدي سيوافق فوراً على زواجي منك . لقد صنعت الفرص لنا يا حبيبي يا بهاء . لن أبعد عنك ، ولن أدعك تبتعد عني ، سنعيش معاً ونموت معاً .

وطوقته بذراعها تضمه الى قلبها ، والسعادة تغمر روحها ، وتهز كيانها ، وتفرح قلبها الندي .

وتم بهاء : سلى لن أظل هنا ، لن أظن ، ولن أتمتع بثروتي . المال يجب ان يوزع على الفقراء ... والاراضي تمنح للفلاحين الذين تعبوا في حراثتها وزرعها .

أما القصر ، قصر وادي الجماجم فهو لي . سأقيم فيه على وحدة وانفراد . هناك أستطيع أن اجتمع بروحي . أستطيع ان اتحدث دون أن يضايقني أحد ، هناك سيعيش بهاء وحيداً الى ان تمين ساعة الرحيل .

ووثب بديع على ذعر : بهاء ا . رحمة بشبابك الغض النضير . لا تعرض نفسك للأخطار يا بهاء . الارواح تحتل قصر الجماجم . اني أقسم لك . الفلاحون بأسرهم شاهدوا الارواح تحتل القصر .

قال بهاء : ا تكون مجنوناً يا بديع ؟ أي ارواح هي هذه

التي تتكلم عنها؟ بيننا وبين الارواح حاجز مادي لن نستطيع
يد هدمه . لا الارواح تستطيع الوصول اليها ولا نحن نستطيع
الوصول اليها إلا من خلال الغيب ، من خلال الضمير ، من خلال
الوحي والالهام . لن تنكشف لنا حقيقة الارواح يا بديع إلا في
تلك اللحظة الرهيبه التي تنفصل فيها الروح عن الجسد .

فعاد بديع الى التوسل والاستعطاف : بهاء ! .. إذا لم تخش
الارواح فاخش اللصوص . هناك في جرود جبل الجماجم عصابة
خفيفة تفتك بالاغنياء وتسلبهم أموالهم . انها عصابة الموت .
هذا هو اسمها . عصابة الموت هذه تحتل مغاور جبل الجماجم
وواديه . وكثيرون هم الاغنياء الذين فتكت بهم تلك العصابة .
لا ترم نفسك في النار يا بهاء .

قال بهاء بعناد : لقد قلت كلمتي . لن أتزعزع عنها . أنا
سأذهب الى قصر الجماجم وأعيش فيه . إذا شئت أن ترافقني
فلك الخيار .

وجلس بديع على مقعد واهي القوي ، وقد أدرك ان ليس
ثمة قوة تستطيع أن تقعد بهاء عن عزمته .
وتمتم : أمرنا الله ... أمرنا الله ... سأذهب معك إلى قصر
الجماجم وليفعل الله بنا ما يريد .

وانصرف بهاء العواد إلى الاستعداد للسفر إلى وادي
الجماجم .

سيغادر بهاء كوخه الحقير ليتوجه إلى وادي الجهاجم .
ويعيش في ذلك القصر الموحش البعيد ، القائم أبداً على
نجمهم وكآبة وعبوس .

وأقامت سلمى على حزن عميق .

حبيبها سيبتعد عنها .

وستكون حياته في خطر .

إذا لم تفتك به الأرواح الشريرة ، فسيفتك به اللصوص .
هكذا قال بديع .

أما بديع فقد جلس على كرسي مخلع في زاوية من زوايا
الكوخ واستسلم للتفكير العميق والخوف البعيد .
إنه يخاف الأرواح الشريرة .

ويود لو أنه يستطيع صرف صديقه بهاء عن عزمه على
العيش في قصر وادي الجهاجم المهجور ، البعيد ، المنعور بالوحدة
والانفراد ، المسكون بالأرواح الشريرة ، المحاط باللصوص
المجرمين .

ونخيم الصمت على الكوخ .

وراحت سلمى تسكب الدموع الغزيرة .

وتتمتم : بهاء . بعادك عني سيفمر روعي بالآلام والاحزان ،
ويبعث الدمع إلى عيني . خذني معك إلى قصر وادي الجهاجم ،
خذني معك إلى حيث تريد . أنا أحبك ، أحبك يا بهاء ولا

أستطيع أن ابتعد عنك .

قال بهاء : إذا كان لي في قلبك ذرة من حب فالبعاد سيجعل
من هذه الذرة قوة هائلة تنمر كحياتك وتقضي فيك على روح
البغض والشرايا سلمى . ليس ثمة قوة كقوة البعاد تستطيع أن
تفعل المعائب في قلوب المحبين . البعاد لقلوب المحبين كالندى
للأزهار ، وكالتور للاطيار ، وكالجداول للانهار . لا يستطيع
الحب أن يزن حبه ، لحبيته إلا بميزان الفراق . ساعة الفراق
يعرف المحب مقدار حبه لذلك الحبيب ، الذي سيدبتعد عنه ؛
ولا يخيل اليك يا سلمى ان الفراق يطفىء هيب الحب . لا ،
لا .. إن الحب لا يبعث في القلوب إلا إذا غمره الفراق وأذابته
نار البعاد الطويل . أنا سأبعد عنك الآن . إذا قدر لي أن أعود
فسأجد قلبك مضطرباً بنار الهوى والغرام . وإذا كان فراقنا
أبدياً فسنلتقي هناك . هناك في العالم الثاني حيث لا فراق ، ولا
بعاد ، ولا عذاب ، ولا دموع .

ودعاها للانصراف : الآن وقد آن أوان الفراق فإني لأطلب
اليه تعالى أن يحرسك ويرد عنك ضربات الشرير ويجعل قلبك
تربة صالحة للهوى ، وطعاماً شهياً لنار الحب المقدسة الخالدة
السرمدية .

وودعاها بابتسامة واهية كأوراق الخريف .
أما هي فلم تكن لترضى بالابتسامة .

، إنها لتطمع في معانقة حبيبها ، وفي ضمه إلى صدرها ،
وفي تقبيله .

ومن يدري ؟ قد يحكون هذا الوداع الأخير . فلا تقنع
عيناها على بهاء بعد اليوم .

وطوقته بذراعها النحيلتين .

وضمته إلى قلبها برفق وحنان .

وألقت رأسها الجميل إلى صدره .

وأجهشت بالبكاء .

وراحت أصابع بهاء تعبت بشعرها الحريري ، وهو ينظر
من النافذة إلى الأفق البعيد ، والدموع تترقرق في عينيه .

ووقف بديع بعيداً ينظر إلى وداع الحبيين ، وهو يحش
بالبكاء كالأطفال .

وكان منظره مضحكاً في سكب الدموع .

فهو يتمنى لو يتاح له ان يقف موقف بهاء .

يتمنى لو يحود عليه الله بحبيبة تسكب الدمع لفراقه ،

وتضمه إلى صدرها ، وتلقى برأسها الجميل إلى صدره .

وطالت وقفة الحبيين في وداعها الأليم .

وطال بكاء بديع ونحيبه وعويله .

ومضت الدقائق سريعاً .

ولم تسلخ سلى عن صدر بهاء إلا وقد أنهكتها ألم الفراق ،

وبالت دموعها عنق حبيبها وصدوره .

وما ان خرجت سلمى من كوخ بهاء حتى أسرع بهاء الى
بديع بدعوه الى المسير : قم ، هيا بنا الى وادي الجماجم ،
هيا بنا .

وخرجنا من الكوخ .

وأوصد بهاء باب الكوخ المخلع وراءه ، ودو يتمم : وداعاً
أيها الكوخ الذي ظلمني زمناً طويلاً وغمرني بحنانه وعطفه ،
وشاهد بؤسي وعذابي ودموعي .

وسارا الى الطريق العام ، باحثين عن عربة تنقلهما الى
وادي الجماجم .. والعربات يومذاك تجرها الخيول .

فليس ثمة سيارات يدفعها « البنزين » الى الانطلاق .

ما هناك في لبنان سوى عدد قليل من السيارات لا يتجاوز
عددها أصابع اليدين .

وتلك السيارات كانت وقفاً على الاغنياء الكبار من أبناء
البلاد وعلى كبار ضباط الجيوش الفرنسية المحتلة في لبنان .

وطال بحثها عن العربة .

ولكن دون جدوى .

فليس ثمة حوذي يرضى بأن ينقلها بعربته الى وادي الجماجم
النائي البعيد ، الضيق الطريق .

ورأى بهاء أن يقطعا طريق وادي الجماجم سيراً على الاقدام

إلا ان بديعاً لم يكن من رايه .

فهو يفضل امتطاء عربة تنقلهما الى القصر الموحش
الكئيب .

وقال بديع : نحن أغنياء الآن . إنك لتملك ثروة طائلة يا
بهاء ، أيجوز للأغنياء ان يسيروا على أقدامهم ؟ وأيم الحق . لن
أسير خطوة واحدة ، لن أسير...

وابتسم بهاء وقال : تعال . أنيت أننا لم نستلم بعد
الثروة المدرار يا بديع ؟ نحن ما زلنا فقراء حتى الآن . تعال
تعال .

وأهسك بيده يجره .

وسار بديع على تأفف وتذمر .

وكان يتهم كلمات نابية تدل على مدى غضبه وحنقه .
وسارا سيراً حثيثاً .

وكان بهاء يحمل دفاتره وأوراقه وأقلامه .

أما بديع فكان يحمل بعض المأكولات والأثمار .
وطال سيرهما .

وأدركها الليل ، وهما في غابة كثيفة الاغصان وارفة
الظلال .

فجلسا تحت شجرة سنديان عجوز وكان بديع شديد الملح .
ان ذكرى الارواح الشريرة لا تزال ماثلة أمام عينيه .

ودعاء بهاء الى النوم تحت السنديانة - : هنا سترقد اللبنة
يا بديع ، لستأنف سيرتا مع مطلع الفجر البعيد .
وتأفب بديع وتذمر : هنا ؟ هنا في هذه الغابة تريدني على
النوم ؟ هل جنتت . ألا تخاف الأرواح ؟ ألا تخاف اللصوص ؟
ألا تخاف الوحوش الضارية ؟

فعاد بهاء الى الابتسام : انا لا اخاف شيئاً . الانسان يخيف
ولا يخاف يا بهاء . الارواح لن تمسنا بسوء . واللصوص لن
يستطيعوا ان يشفوا غليلهم منا ، ما دمنا لا نحمل ذهباً ولا
فضة . اما الوحوش فهي ارفق بالانسان من الانسان بالحيوان .
لا تخف . نم . نم .

وتمدد بهاء فوق التراب .

واسند رأسه بيده .

واستغرق في نوم عميق

وحاول بديع النوم ، فلم يستطع .

ونفض يجمع الحطب ويضرم النار .

إنه ليأمل ان يطرد لهيب النار ونورها الارواح والوحوش...
وكانت ألسنة النار تتصاعد وسط الظلام فتجمل من أشجار
الغابة الكثيفة أشباحاً هائلة تتمايل كلما تمايلت ألسنة اللهب مع
نسيم الليل العليل .

ونام بديع .

وكان الليل البهيم يرخي على الغابة هدوءه فيزيد في وحشة المكان .

وأبى بديع ان يفتح عينيه ، إلا وخيوط الفجر الوردية توشى ثوب الصباح الجميل بنورها الناصع البياض .
واستفاق بهاء من نومه

ونفض يدعو بديعاً لاستئناف المسير إلى قصر وادي الجماجم .
وعادا إلى المسير...

وكانا يقطعان الجبال ، والوديان ، والتلال ، ويمران بالجداول والانهار فيقف بهاء عند كل منظر طبيعي رائع فاتن مأخوذاً بعظمة الخالق الديان وبقدرته وجلاله .

وطال مسيرهما خمسة أيام ، أطلا بعدها على وادي الجماجم الموحش الرهيب .

وشاهدوا القصر الرابض في سفح الجبل المطل على الوادي السحيق .

فصفق بديع طرباً : الحمد لله ، لقد وصلنا أخيراً بالسلامة .
وكان عليهما أن يجتازا النهر الفاصل بين سفحي الجبلين المأخر عباب الوادي ، للوصول إلى القصر .

واجتازا النهر حافبي الأقدام
ووصلا إلى القصر ، والشمس قد بدأت تتأهب للأفول وراء تلك الجبال والتلال .

وكان كل ما هناك يوحي بالرهبة والجشوع .

فالقصر الشامخ المنيف مكفهر عبوس .
وهو غارق في الغابة الكثيفة الأغصان الوارفة الظلال .
وأناشيد النهر تنساب عند أقدام قصر الجماجم تتكسر في أذن
الطبيعة .

فتزيد في رهبة المكان ووحشة الوادي وعبوس القصر .
ووقفنا أمام الرجاج العالي .

وكان الباب الحديدي مفتوحاً على مصراعيه .
فهمّ بهاء بالدخول .

إلا ان بديعاً وقف بينه وبين الباب ، والخوف مرتسم على
وجهه .

وتتم : الأرواح .. الأرواح .
والتفت بهاء العواد إلى رفيقه وصديقه بديع ليقول : أين
الأرواح يا بديع ؟ إنني لأتوق إلى مرآها .
قال بديع :

- إسمع . إسمع يا بهاء ، ألا تسمع حفيفها وفحيحها
يقترّب منا ؟

قال بهاء :

أنا لا أسمع شيئاً .

قال بديع :

- إسمع .. إسمع

وسمع بهاء !

ماذا سمع ؟

لقد سمع حفيفاً ضعيفاً غريباً ينساب مع خيسوط الشمس
الصفراء الواهية المناسبة من بين الاغصان والأشجار .
وأرهمف بهاء أذنيه .

وكان الحفيف يقترب منها رويداً رويداً ، قادماً من الغابة
القريبة من القصر الشاهق الجبار .

ووقف بديع يرتجف من الخوف .

وكان يحاول الكلام فيخنتق الكلام على شفتيه .

والتفت بديع إلى بهاء على دعر .

وتمم بعد جهد :

- أنا أريد العودة . فلنعد حالاً قبل أن تقضي علينا

الأرواح يا بهاء .

وابتسم بهاء وقال :

- لقد قضينا خمسة أيام وليالٍ نسير على أقدامنا إلى أن

وصلنا إلى القصر ، وتريد العودة فوراً قبل أن نأخذ قسطنا من

الراحة ؟ ! تعال يا بديع . تعال ندخل إلى القصر ، لا تخف يا

صديقي .

قال بديع بخوف :

- أتريد الدخول إلى القصر والليل يتأهب للوثوب ؟ أنت

مجنون مجنون مجنون . أدخل إلى القصر وحدك يا أخي ، أما

أنا فأريد العودة .

وهم بالعودة أدراجه .
 إلا ان الحقيف كان مقبلاً من الغابة .
 وكان على بديع أن يجتاز الغابة في عودته .
 وعليه بالتالي أن يجابه « الارواح » .
 وعاد بديع إلى الوقوف .
 وراح يعمل على إقناع بهاء بالعودة وإياه .
 إلا ان بهاء أصر على الرفض ، فهو عازم على الدخول إلى
 القصر وقضاء الليل فيه .
 هذا هو قصره ، القصر الذي تركه له عمه .
 أيتخلى عنه ؟ .
 لا ! بهاء العواد عازم على قضاء حياته في القصر .
 لن يعود عما عزم عليه .
 مستحيل مستحيل .
 وقال بهاء :

- أنا لا أعود يا بديع ، لن أعود معك . إذا شئت أن ترجع
 من حيث أتيت فلك الخيار . أما أنا فلن أعود . لقد وصلت إلى
 قصري . وفي قصري الموحش النائي ، للبعيد ، الكئيب ،
 الكئيب سأقضي ما بقي من عمري على هذه الأرض .
 وكان بديع يرتجف من الخوف .
 وكادت ركبته تهويان به إلى الأرض .
 إلا ان بهاء تقدم منه وأمسك بيده ليقول :

- لا تخف لا تخف . تعال تعال .

وتم بديع :

- إني أؤكد لك ان الأرواح مقبلة إلينا من الغابة . هذه الأرواح فتكت بعمك وأخفت جثته ، وهي تريد الآن ان تفتك بنا وتخفي جثتنا . أنا ما زلت شاباً . ولست مستعداً أن أتخلى عن حياتي بهذه السهولة . فإن شئت أنت أن تتخلى عن شبابك وتذهب فريسة سائفة للأرواح فلك ملء الاختيار . فقه بهاء .

وقهباته زادت في غضب بديع ، وفي حنقه ونقته . وانفجر بديع غاضباً ليقول :

- أنت مجنون / هل يمكن لانسان أن يعيش مع الجانين . عش في جنونك وحدك ودعني أعود إلى بيروت . قال بهاء :

- عد ، عد وحدك ، أما أنا فلن أعود .

قال بديع :

- عد معي الآن إلى المدينة . ثم عد وحدك إلى هنا . أنا أوصلتك إلى القصر ويتحتم عليك أن تعيدني إلى حيث كنت . وفي هذه الاثناء اقترب الحفيف منها . وكان خوف بديع وجزعه يزدادان باقتراب ذلك الحفيف . وفجأة المجلي سر الحفيف .

ووثبت هرة بيضاء من بين الادغال اليها ، وهي ترسل

مواها الحزين .

وأدرك بهاء أن تلك الهرة هي هرة عمه .

وأنها جائعة .

وان الفلاحين أهملوا أمرها بعد موت الشيخ المسكين .

وضحك بهاء .

وانتفت الى صديقه بديع يقول : هذا مصدر الحفيف يا

يا بديع ، رأيت أن ليس ثمة أرواحاً في هذا القصر ، ولا من

يحزنون ..

وارتاح بديع وقد شاهد الهرة البيضاء .

إلا ان الخوف عاوده ، وقد شاهد الهرة تقترب منه. وتمتم :

— ألا يجوز ان تكون الارواح اتخذت شكل هرة لتقترب

مننا ؟ .

وانفجر بهاء غاضباً :

— يا لك من رجل محدود الفكر ، بسيط القلب يا بديع .

أي ارواح هي هذه التي تتكلم عنها ! ثق يا أخي ان الارواح

لن تظهر لك ولن تشاهدها ، إلا وقد انعتقت روحك من هذا

الجسد الفاني . الروح لا ترى إلا الروح . أما الجسد المادي فلا

يرى إلا المادة . لا تخف ، لا تخف . تعال .. تعال .

وأمسك بهاء بيد بديع يشدها ، ويدخل به إلى حديقة

القصر الغناء .

وكان الظلام قد بدأ يدحر جيوش النور ويبسط جناحيه

على تلك الربع مرسلأ أطرافه البعيدة ، غامراً الجبال والوديان

والتلال والغابات بأشباحه السوداء .
وكانت أبواب القصر كلها مشرعة .
فالفلاحون خافوا الدخول إلى القصر ، بعد ان انتشر نبأ
الارواح الشريرة .
وراحوا يبحثون عن وريث شيخ قصر الجماجم ، عن بهاء ،
ليدعوه إلى استلام قصره وإبعاد الأرواح عنهم .
ودخل بهاء إلى القصر على مهل .
وتبعه بديع ، والخوف مرتسم على عينيه ، ظاهر في
خطواته وتمتاته وهمساته
وكان القصر غارقاً في الظلام .
فأشعل بهاء عود ثقباب وراح يبحث عن مصباح ، او عن
شمعة ، او عن قنديل زيتي .
وطال بحثه .
وطاف البهو الخارجي من القصر .
ثم دخل الى الرواق .
ثم الى غرفة الاستقبال .
وكادت علبة الثقباب تنخلو من العيدان ، وبهاء لم يهتدِ إلى
مصباح ، ولا إلى شمعة .
وأخيراً انتزع من جيبه بعض الاوراق وراح يحرقها مستعيناً
بنورها على السير في ردهات القصر وممراته وغرفته ، باحثاً عن
المصباح .

وكان بديع يتبعه على خوف وارتعاش .
وكلما سمع بديع همسة أو أحس بنسمة هواء تتم :
- الأرواح ، الأرواح ، اطردها يا رب وابعدها عنا يا
إله السماء .

وراح بديع يصلي .
ويتم بالآيات المقدسة ، مستعيناً بها على طرد الأرواح
الشريرة المرعبة الخيفة .
واخيراً ، وبعد طويل تفتيش عثر بهاء على مصباح زيتي
أشعله .
ثم حمله وراح يطوف انحاء القصر ، متفقداً محتوياته وأثاثه
وأغراضه ومفروشاتاه .

وكان كل شيء على حاله .
فكان شيخ قصر الجماجم لا يزال يعيش في قصره .
كانت مفروشات القصر ورياشه رائعة ثمينة .
ومعظمها من المعادن الثمينة
أو من المذبوجات النفيسة .
أو من الخشب النادر المثال .
وأعجب بديع بهذه الرياش وبتلك المفروشات .
وكان ثمة تماثيل عدة من الرخام ، ومن البرونز رائعة الجمال .
وفي غرفة فسيحة الأرجاء من غرف القصر شاهد بديع
جمجمة بشرية موضوعة باتقان على طاولة صغيرة ، فدعر .

وعاد الى الولولة :

- اريد ان أعود ، اريد ان اعود ، الآن عرفت سبب
تردد الارواح الى هذا القصر . وعرفت ايضاً السبب في إطلاق
إسم الجماجم على هذا القصر . أتريد ان تعيش مع الجماجم
والموتى ؟ لا ، لا ، أنا لن أقام هنا . لن أقام .

وابتسم بهاء ، وقاد بديعاً الى غرفة النوم وقال له :

- هنا . هنا ستنام الليلة يا بديع .

-- والارواح ؟

- لا تخف ، لن تمسك بسوء .

واستلقى بديع على سرير .

واستلقى بهاء على آخر .

فالتعب أنكها .

والسير الطويل أتعب ارجلها وأثقل جسميها .

واستسلم بهاء للنوم فوراً .

أما بديع فلم يغمض له جفن ، بل راح يرفف اذنيه مستمعاً

لكل همسة ، مصفياً لكل نسمة ، ولكل حركة في ذلك القصر

الفسيح .

ومضى الليل في المسير ، وكل شيء هادئ صامت هاجع في

قصر وادي الجماجم .

وكاد الليل ان ينتصف ، وبديع على قلق وحيرة وأرق .

اخبار الارواح الشريرة التي سمعها ابعدت النوم عن عينيه .

- وبعث الفأق إلى قلبه ، والأرغام إلى رأسه .
- ومضته السهز .
- وأتعب الأرق .
- وبدأ الكرى يداعب جفنيه .
- فراح يقاوم الكرى محاولاً إبعاد النوم عنه .
- فهو يخاف واثوب الأرواح الشريرة اليه ، وهو في غفلة الرقاد ، فتطبق على عنقه بأيديها القوية الشديدة وتغرز اظافرهما الطويلة الناتئة في وجهه ورقبته وصدره ، وتقضي عليه .
- وقاوم بديع النوم طويلاً .
- إلا انه لم يستطع المقاومة حتى النهاية .
- فأطبق النعاس جفنيه بيده السحرية الناعمة واستلم للرقاد .
- وانسابت الأحلام في رأسه .
- فشهد شيخ قصر الجماجم بشعره الأبيض الناصع ، وقامته الفارعة وظهره المحدودب ، ويديه النحيلتين البارزتي العظام ، وخطواته المضطربة الواهية .
- وكان الشيخ يقترب منه مقهقها على جنون ..
- وذعر ...
- وحاول الهرب .
- إلا ان الشيخ كان قد اقترب منه .
- ووقف قربه يقهقه .
- وأخذ بديع يحاول الكلام .

واستطاع ان يتكلم بعد جهد كبير فقال : « رحماك يا عماء
رحماك لا تقتلني » .

وأجاب الشيخ :

« لا لا لا ، أنا لن اقتلك يا ابني ولكن قل لابن اخي بهاء
ان يهرب من هذا القصر . اهربا . . اخرجنا من هنا حالاً حالاً
حالاً حالاً » .

واستفاق بديع مذعوراً ..

وأخذت اسنانه تصطك من الفزع للحلم الرهيب . .
وعاد الأرق . . .

واستوى في سريره يحدق بالظلام على خوف واضطراب .
وإذا به يسمع وقع خطوات تتكسر في اذن الليل البهيم . .
وكانت الخطوات قادمة من خارج القصر .
فتسمر بديع في سريره .

هذه الخطوات هي خطوات الارواح :

اللهم نجنا منها وأبعدنا عنها يا أرحم الراحمين .
وبدأت الخطوات تقترب من غرفة النوم . .
وكلما تقدمت الخطوات منه ازداد خوفه .
ورغب في إيقاظ بهاء .

إلا انه خشي ان يكون واحداً ، وان تكون تلك الخطوات
التي يسمع وقعها حلاً ثقيلاً ، فيضعك بهاء منه .
إلا ان الخطوات وصلت الى غرفة النوم .

وإذا ببديع يرى شبحاً طويلاً .
 إنه وارد ينتصب في باب غرفة النوم .
 وذر بديع .
 وأطلق صرخة داوية تجارب صداها في ذلك القصر الموحش
 الكئيب العالي .
 واستفاق بهاء :
 - بديع ! .. ما بك ؟
 وتم بديع :
 - ان .. ان .. ان .. ان .. انظر !
 ونظر بهاء .
 فاذا به امام الشبح المارد الطويل ..
 وراح بهاء يحدق بالمارد ، وقد ايقن ان ثمة سرأ رهيباً في
 ذلك القصر .
 وكان المارد الجبار واقفاً في الباب لا يتحرك .
 فهو لا يتقدم ولا يعود
 وكان مجللاً بالسواد ، من رأسه حتى اخمص قدميه .
 وكان الشبح ينظر الى بهاء ، وإلى بديع فتلمع عيناه في
 الظلام كأنها جمرتان متقدتان .
 ورأى بهاء ان يكشف سر ذلك المارد الطويل القامة المتقد
 العينين .
 فراح يبحث عن علبة الثقاب ليضيء الظلام ويكشف سر

الشبح الرهيب .

وكان الشبح أدرك قصد بهاء فانسَل من باب الغرفة .
وتراجع الى الوراة مختفياً في الظلام الدامس البهيم ، فأركا
صدي خطواته تتكسر في الظلام ، فتزيد رهبة القصر الحزين
رهبة ، وسكوته سكوتاً ، ووحشته وحشة وعبوساً
وترسل الحسوف والفرع والاضطراب في قلب بديع ، الذي
كان جالساً في سريره وهو يرتجف من الخوف .
ونفض بهاء من السرير مفلشاً عن علبه الثقاب .
وراح بديع يتمم بخوف :

— بهاء ! بهاء ! لا تخرج من الغرفة ، الأرواح تحتل القصر
ستفتك بك ، عد إلى هنا ، لا تتركني وحدي هنا ، لا تكن
مجنوناً يا بهاء ، لا تكن مجنوناً . لا تخاطر بحياتك . رفقا
بشبابك عد ، عد ، عد .

إلا ان بهاء لم يعد .

بل خرج من غرفة النوم منغمساً في الظلام إلى الشرفة .
وراح يتمتع نظره بجبال الوديان والجبال والتلال ، والوهاد ،
والأحراج ، والصخور الغارقة في حوض الظلام البعيد .
وكان يفكر .

إنه يفكر بذلك الشبح الذي زار القصر :

من تراه يكون ؟

وماذا جاء يفعل في القصر ؟

من المؤكد ان ثمة سرأ غامضاً يجب كشفه .
لهذا الشبح قصة لا تنتمي الى الارواح بصلة ، ويجب الوقوف
على قصة ذلك الشبح الخيف .
وطالت وقفة بهاء على شرفة القصر .
وكان الهواء عليلاً ..

والليل هادىء النسيمات ، بعيد الوحي والخيال .
والظلام ، ظلام الليل ، يحتضن الجبال والوديان برفق
وحنان ..

وكل شيء يوحى الرهبة والخشوع .
وينطق بعظمة الله وبمجده وجلاله .
وشعر بهاء بحاجة إلى الصلاة .

فجثا على الشرفة وغرق في صلواته وخشوعه وتفكيره .
وعندما بدأت خيوط الفجر الوردية اللون تكمل مقلة
الليل وتنسج ثوب الصباح الجميل ، دخل بهاء إلى القصر ، وعاد
إلى التفتيش في غرفه وردهاته وأقبية ودهاليزه .
ونفض بديع من نومه .

ولحق به ..

وكان في حال ذعر شديد .

فراح يعمل على إقناع صديقه بالعودة إلى المدينة ، قال :

– هل بقي في قرارة نفسك أي شك في وجود الارواح ؟

أتريد ان تعيش بين الأرواح المرعبة الخيفة ؟

وضحك بهاء كمادته وقال :

- لا تكن سخيماً يا بديع هل يمكن للارواح أن تحرمك
لذة الحياة وبهجتها وجمالها ؟

قال بديع :

- ألم تشاهد الشبح في الليل ؟ إني أقسم لك انه ما جاء إلى
هنا إلا ليفتك بنا بعد ان نقتت الأرواح علينا لأننا عكرنا
عليها صفو هنائها وراحتها في قصرها هذا . . . يجب ان نعود ،
يجب أن نعود .

قال بهاء :

- ثق يا بديع ان المارد الذي رأيناه ليلاً ليس روحاً ولا
شبحاً ، انه مثلنا من لحم ودم ، إنه يحمل سرأ في صدره ، وأنا
لن ارتاح إلا بعد ان أكشف غوامض سره . . .
فاشتد الذعر ببديع ، وقال :

- لقد شاهدت عمك الشيخ في الحلم ، وكان يقهقه ، وقد
دعاني للخروج من القصر ، قال لي : قل لابن أخي بهاء ان
يخرج حالاً من هذا القصر . . .

قال بهاء :

- الاحلام وليدة المخاوف والأوهام ، ما تخافه تراه في
الحلم ، وما تريدُه تصوره لك الاحلام بين يديك . أنت تريد
الخروج من القصر فجاءك عمي ، طيف عمي ، في الحلم يدعوك
للخروج .

ومضى بديع في محاولته إقناع بهاء بالخروج من القصر .

إلا ان بهاء أصرّ ، وقال :
- هنا سأحيا وهنا سأموت .
وراح بهاء يفتش في صناديق عمه وفي أدراجة .
إنه ليبعث عن المال .
عن الميراث الضخم الذي تركه له عمه .
وكان بديع يشاطره البحث والفتيش .
ووجد بهاء بعض الاوراق والسجلات التي تثبت أن ثمة في
مصارف بيروت مبالغ من المال بإسم عمه .
ولكن بهاء كان يعلم يقيناً ان تلك الاموال الطائلة ليست
سوى جزء ضئيل من ثروة عمه الكبيرة .
هناك كمية كبيرة من الذهب تركها عمه .
وليس ثمة من يعلم أين أخفاها .
وراح يبحث عن ذلك الذهب في غرف القصر وفي الدهاليز .
ودعا بهاء صديقه بديعاً لمرافقته إلى أقبية القصر .
وتردد بديع في اول الأمر .
إلا انه أذعن لمشيئة صديقه أخيراً .
وسار برفقته ..
ومشيا في الدهاليز المظلمة مستعينين بمصباح شحيح النور .
وكانت تلك الدهاليز مظلمة ، نتنة ، طويلة .
وكلها تؤدي الى الأقبية المنتشرة تحت القصر المنيف .
وسارا على مهل .

ووصلا إلى قبو فسيح الأرجاء .
ودخلا إلى القبو .
وشاهد بهاء براميل عدة مبعثرة في ذلك القبو ، وبعض الأثمار
المجففة ، وأكياس الحنطة .
وكان في ذلك القبو آثار أقدام تدل على ان ثمة أشخاصاً عدة
دخلوا إليه .
ومن ذلك القبو وثب بهاء وبديع إلى قبو آخر .
وكان ذلك القبو مخصصاً للحطب ، وللفحم .
وكانت أكياس الحطب ترتفع الى السقف .
وأكياس الفحم مكدسة فوق بعضها
ووراء اكياس الفحم وأكياس الحطب تعالي حفيف بعيد
غريب ، يرسل الرعشة في النفوس والرهبة في القلوب
وإذا بالهواء يهب رطباً في ذلك القبو .
فحاول بديع العودة ، وقد أخافه الحفيف ، وأرهبه الهواء .
إلا ان الهواء اشتد فأغلق باب القبو الكبير عليهما .
واشتد الذعر في قلب بديع .
وازداد ذعره ، وقد شاهد جمجمة وهيكل بشرياً من عظام .
وأيقن انها قد دفنا في ذلك القبو ، وان نصيبهما لن يكون
بأفضل من نصيب صاحب الهيكل البشري .
وجلس بديع فوق كيس فحم ، واجهش بالبكاء .

أما بهاء فقد اخذ يعمل على فتح الباب الكبير الذي اغلقه
الهواء .

وكان الحفيف يشتد خلف أكياس الفحم واكداس الحطب
والهواء ما زال يهب رطباً في القبو المظلم ، الموحش ،
الفسيح .

ومضى بهاء المواد في محاولته فتح باب القبو .

وراح بديع يحدق في مصدر الفحيح

وإذا به يطلق صرخة مرعبة ويصيح :

- بهاء ! ، بهاء ! ، انظر ! ، انظر ! ، انظر يا بهاء !

ونظر بهاء فشاهد المارد ..

المارد الأسود الطويل ، يخرج من وراء أكياس الفحم
واكداس الحطب يحمله السواد من رأسه حتى اخمص قدميه .

وكانت عيناه تلعبان .

وكان يسير على مهل نحو بديع .

فأخذ بديع يرتجف من الخوف .

وحاول المضي في الصباح .

إلا انه تلثم ، وتحطمت الكلمات على شفتيه .

ووقف بهاء يحدق في المارد .

ولم يداعب قلبه الخوف ، بل راح يتمتم :

- من انت ؟ من انت ؟ ماذا تريد ؟

ولم يجب المارد .

بل كان يرسل صغيراً أشبه بفحيح الأفاعي ، وهو يسير .
 وإذا بالمصباح الشاحب النور ينطفئ في يد بهاء .
 وأصبحا مع المارد الأسود الخيف وحدهما في قبو مظلم
 رهيب ، موحد الباب .
 واشتد الذعر ببديع .
 وتلاشت قواه .
 وشعر بأن الأرض تميد به .
 أما بهاء فقد وقف مكانه لا يتحرك ، ولا يعير المارد أدنى
 اهتمام .
 وسار المارد نحو الباب المقفل فأمسك به وشده بقوة .
 وفتح الباب فجأة بين يدي المارد .
 وخرج المارد تاركاً الباب مفتوحاً .
 وسار بهاء وراءه .
 أما ببديع ، فقد راح يصرخ :
 بهاء ! بهاء ! بهاء .. خذني معك ، لا تتركني هنا !
 وكان بود بهاء أن يلحق بالمارد إلى الخارج ليقف على حقيقته .
 إلا أن صراخ ببديع أهاب به إلى العودة .
 وعاد ..
 وأمسك بيد ببديع يساعده على المسير .
 واتكأ ببديع على يد بهاء .

وسار وهو يرتجف من الخوف والفرع .

وكان المارد قد اختفى .

ولم يستطع بهاء إدراكه بسبب بطء سير بديع .

ووصل بهاء بصديقه بديع الى غرفة النوم .

فاستلقى بديع على السرير وهو يئن ويتمتم :

— عد بي من حيث أتينا . لن أقيم في هذا القصر المسكون

لن أقيم . أتريد أن تقبض الأرواح الشريرة روحك ؟ ألم تشاهد

بمينك الشبح الأسود الرهيب ؟ ألم تسمع حفيفه ؟ ألم تلمس

بيدك صخرة ما قيل لنا حول الأرواح . لا أريد ان أقيم في هذا

القصر الخيف ، لا اريد .

وابتسم بهاء وتمتم :

— لا تخف يا بديع ، لا تخف .

وهدر بديع على غضب :

— لا تخف ، لا تخف ، ماذا تريد كي تخاف ؟ أتريد أن تجثم

الأرواح الشريرة على صدرك وأن تطبق بأيديها القوية وبأظافرها

الناثة على عنقك وتخمد انفاسك كي يتسرب الخوف عندئذ الى

قلبك ؟ أنا خائف . نعم أنا خائف ، وأي إنسان يرى ما رأيت

ويسمع ما سمعت ولا يموت من الخوف؟

وقهقه بهاء على ارتياح وقال :

— انا سأبعد الأرواح الشريرة عنك يا بديع ، ألا تثق بي ؟

وعاد بديع إلى الاستعطاف :

— رحماك ، رحماك يا أخي بهاء لا تعرض نفسك وتعرض
صديقك الحبيب بديع للخطر فانرجع إلى بيروت حيث نعيش
هناك عيشاً هانئاً مطمئناً .

إلا ان بهاء لم يحب بديعاً إلى طلبه .
لقد عزم على العيش في وادي الجماجم ..
ولن يتزحزح عما عزم عليه ..
وكانت الشمس قد بدأت تطل من وراء الجبال مرسله
خيوطها الذهبية خلال أغصان الغابة إلى القصر .
فخرج بهاء إلى شرفة القصر يتمتع نظره بجبال الطبيعة الرائع
الفتان ..

وأقام على انتظار .
إنه ينتظر حضور احد الفلاحين ، ليقف منه على تفاصيل
موت عمه واختفاء جثته .
ولم يطل انتظاره ..

فالفلاحون توافدوا عند الظهر للسلام على بهاء .
وكانوا قد ابتمدوا عن القصر على اثر الشائعات المتضاربة
حول الارواح الشريرة المتربعة في قصر وادي الجماجم على
الرحب والسعة .

وراحوا يروون لبهاء ما شاهدوه وما سمعوه عن الأرواح
وعن اختفاء الشيخ .
وكلها اخبار لا تختلف عما سمعه بهاء .

الارواح الشريرة كانت تظهر في الليل فترقص وتعرىد في القصر ، وهي الأرواح التي اختطفت الشيخ وأخفته وحملته الى عالمها المجهول القرار .

ولكن ما قاله الفلاحون لم يقتنع بهاء العواد .

فهو يريد ان يقف على جثة عمه .

وما دامت جثته غير موجودة فليس هناك ما يثبت موته .

وعزم بهاء على البحث عن عمه .

يجب ان يجده ميتاً او حياً . . .

وراح بهاء يستطلع آخر أنباء عمه من الفلاحين والمزارعين

والعمال .

والأنباء كلها واحدة .

كانت تقول : ان شيخ قصر الجماجم اختفى بين الأرض والسماء ، والاعتقاد السائد في تلك الربوع هو ان الارواح الشريرة فتكت بالشيخ لانه كان يضايقها بإقامته في القصر ، ثم حملته إلى مقرها المجهول .

ولكن بهاء لم يكن يعتقد بمقدرة الأرواح الشريرة على القيام بمثل هذه الاعمال الأرضية .

ولذلك فقد أصر على وجوب إيجاد عمه .

واتصل بهاء بالسلطات اللبنانية .

والسلطات يومئذ بإدارة فرنسية .

فالحرب الكونية الاولى انتهت منذ سنين والفرنسيون ، هم

المسيطرين على لبنان .

وأطلع بهاء العواد السلطات على قصة اختفاء عمه ، طالباً
اليها مساعدته في البحث عن شيخ قصر الجماجم .
والسلطات مثل بهاء .

لم تكن تؤمن بمقدرة الأرواح الشريرة على القتل وإخفاء
الجثث .

لذلك فهي قد اهتمت كل الاهتمام للأمر وأوفدت أحد
رجالها الى وادي الجماجم للبحث عن الشيخ الضائع الأثر .
إلا ان رجل الأمن المكلف بالبحث عن الشيخ العواد اختفى .
توجه إلى وادي الجماجم .

واتصل بالشاعر بهاء وبيعض الفلاحين .

ثم انصرف الى وضع تقرير مسهب باتصالاته .

وعاد إلى بيروت لاطلاع رؤسائه على تقريره .

إلا انه لم يصل إلى بيروت .

وعندما بحث رؤسائه عنه تلموا انه ضاع في وادي الجماجم .

واشتد الذعر بأبناء تلك الربوع ، وقد انتشر نبأ اختفاء

رجل الأمن ا .

وكان أشد الجميع ذعراً صديق بهاء بديع .

واهتمت السلطات اهتماماً شديداً للأمر .

وأوفدت رجلاً آخر هو المفتش عادل البسام :

وعادل شاب في مقتبل العمر ، ذو قوام رشيق ، وجمال

رحيب، وقوة بأس وذكاء .

وانطلق عادل الى وادي الجهاجم ، وقد عزم ألا يعود إلا وقد اكتشف السر الرهيب الغامر . تلك الربوع الهادئة الهاجعة بين أحضان الجبال والوديان ، على خوف ، وقلق ، واضطراب .

ووصل المفتش عادل البسام الى وادي الجهاجم .
وشخص نواً الى القصر الرهيب ، الجاثم على كآبة وألم وشجن .

واستقبل بهار العواد المفتش الشاب بالترحيب .

وأطلعه على كل ما جمعه من معلومات .

وتبرع بديع بتقديم معلوماته الخاصة للمفتش عادل البسام ،
- الأرواح تحتل هذا القصر يا سيدي ، انها لتفتك بكل من تسول له نفسه الدخول إلى هذا القصر المنيف . فهي قد فتكت بالشيخ الوقور ، وفتكت بزميلك مفتش الامن ، ولا اعلم لماذا تكرمت علينا وسمحت لنا بالاقامة في هذا القصر دون ان تفتك بنا حق الآن . إذا شئت ان تنجو بنفسك ويشبابك فما عليك إلا ان تعود حالاً من حيث أتيت .

وضحك المفتش من كلام بديع ، وقال له :

- لا تخف أنا سأحميك من الأرواح ، وسأقضي عليها الليلة ، لقد عزمت على ان أنام الليلة معك في هذا القصر ايها السيد بديع ، وسأرى كيف يستطيع المفتش عادل البسام ان يبدد

هذه الاوهام والشعوذات ،

قال بديع :

- أنت حر يا أخي في المخاطرة بنفسك ، أنا حذرتك فافعل
ما يطيب لك .

وعندما هبط الليل ، وبسط الظلام جناحيه على تلك الانحاء
كان المفتش عادل البسام يحشو مسدسه بالرصاص ويستلقي على
سريره في غرفة من غرف القصر ...
بانتظار قدوم الارواح .

ومضت الساعات من الليل سريماً وعادل البسام في استلقائه
على السرير ، في سهره ، وفي ترقيبته قدوم الارواح الشريرة
الكريمة الشم ..

وبدأ النعاس يداعب أجناف المفتش النشيط .

وبدأت أصابعه القابضة على المسدس ترتخي وتقلت الزناد .
وإذا بعادل يستسلم للكرى ، والفجر يكاد يتأهب للبروغ .
وما ان أغمض عينيه حتى هدر صوت استغاثة اهتزت لها
جنبات القصر العالي المنيف : « إلينا ، إلينا .. »

وكان الصوت صوت بديع .

واستفاق عادل على غضب .

وأمسك المسدس .

وأسرع نحو غرفة بديع .

ووصل إلى الغرفة فاذا ببديع جالس في سريره وهو يرتجف

من الخوف .

وكان بهاء واقفاً يحاول إسعافه ومدده بالمنمشات .

وسأل المفتش عادل البسام : بهاء ، ماذا جرى ؟

وقال بهاء :

– لقد شاهد بديع المارد الجبار الذي يغشو القصر كل ليلة ،

فخاف واستنجد بنا .

وتتم بديع بخوف عظيم :

– المارد الجبار حاول خنقي ، لقد اقترب من سريري ومد

يديه القاسيتين الطويلتين إلى عنقي ، وراح يضغط على رقبتني

بكل قوة محاولاً القضاء عليّ . وحاولت الاستنجاد في بادئ

الأمر إلا أن الكلمات اختنقت على شفتي . وأخيراً تمكنت من

إطلاق صرخة الاستنجاد ، وعندئذ ، وعندئذ فقط ، عندما

صرخت أفلت المارد عنقي وخرج من الباب على مهل ، وكأنه

يسير إلى وليمة .

وقال عادل :

– إلى أين اتجه المارد ؟

قال بديع :

– لست أدري ، كل ما أعرفه هو أن المارد حاول خنقي .

انقذوني منه إنقذوني . أريد أن أعود إلى المدينة . أنا لست

قادرأ على الحياة مع الأرواح الشريرة في هذا القصر .

وكان بديع في بكائه وعويله واستنجاده ، يثير الضحك

والسخرية .

واندفع عادل البسام الى غرف القصر يبحث فيها عن
المارد الجبار .

واندفع الشاعر بهاء معه .

وقال المفتش :

- من المؤكد ان المارد ما زال في القصر ، فهو لم يخرج ،
يجب القبض عليه لمعرفة حقيقته ..

وانطلق الاثنان ، عادل البسام وبهاء العواد ، الى جميع
الغرف يفتحونها ..

ثم انطلقا الى الحديقة باحثين عن المارد الأسود الجبار ..
إلا انهما لم يقفا منه على اثر ..

و كانت أنوار الفجر البعيد قد بدأت تخضب الظلام ، ظلام
الليل الدامس بنورها الارجواني الجميل ..

والازهار بدأت تنفخ شذاها الفواح العبير ، فتعطر حنايا
الفجر البعيد ..

والاطيار بدأت تتنقل على الأغصان غامرة تلك الجبال
والوهاد والوديان بأنغامها الشجية ، وبألحانها الحاملة العصبا ..
وسكرت الطبيعة بأنغام الطيور ، وعطر الزهور . وأحلام
الفجر البعيد الفواح العبير .

فجلس بهاء العواد على مقعد حجري أبيض في الحديقة ...
وراح يصلي في أعماق روجه ..
متعاً نظره بفاتن الطبيعة ..

خاشعاً امام قدرة الخالق العظيم الذي أوجد السماوات
والارض ومن في السماوات والارض ، وسبب لهم الشرائع والقوانين
والانظمة والدماتير ..

أما المفتش عادل البسام ، فقد جلس يفكر بطريقة يستطيع
بها القبض على المارد الجبار ..

من المؤكد ان هذا المارد إنسان مثلنا .

وانه يحمل في صدره سر اختفاء شيخ قصر الجماجم الوقور .
وطلع الصباح ..

فانزوى بديع في غرفته لا يجرد على الخروج منها ..

فهو يخاف الارواح الشريرة ..

وقد بات على يقين انها تحتل القصر . وانها عازمة على الفتك

به ، وبصديقه الشاعر ، وعادل البسام .

وانطلق عادل الى أكواخ الفلاحين ومنازلهم وحقولهم .

وأخذ يتصل بكل واحد منهم على حدة ..

محققاً معه ، توصلاً لمعرفة مصير الشيخ الضائع الأثر ..

إلا ان كل الافادات كانت متشابهة ..

ولم يتوصل عادل البسام الى بصيص نور يضيء امامه سبيل

الوصول الى معرفة الحقيقة .

وقضى عادل البسام طيلة نهاره في البحث والتدقيق ..

وفي المساء عاد الى الفصر ، فتناول طعام العشاء مع بهاء

وبديع في غرفة الطعام ..

ثم انتقلوا الى الشرفة حيث قضوا سهرتهم يتمتعون انظارهم

بمناظر الغابات والاحراش والوديات ، وهي غارقة في حوض
الليل البهيم ..

وقبل منتصف الليل بقليل دخلوا إلى القصر ليناموا ..

إلا ان بديعاً أبى أن ينام وحده في الغرفة ..

وأصر على أن ينام في غرفة مفتش الأمن .

وابتسم عادل البسام وقال له :

– لا بأس ، تعال ، نم في غرفتي ، سأحميك من الارواح

الشريرة الليلة ، لن أدعها تصل اليك ..

وآوى بهاء إلى سريره .

ودخل عادل الى غرفته

وتبعه بديع

واستلقى كل منهما على سريره .

وغرق بديع في نوم عميق .

فهو مطمئن إلى النوم في غرفة المفتش ..

بديع البسام سيمنع الارواح الشريرة من الاعتداء عليه ..

لن تؤذيه ..

لن تخنقه ..

لن تمد اليه يداً وهناك رجل الأمن ، وقوته ، وشجاعته ،

ومسدسه ايضاً ..

وأقام عادل البسام على سهر طويل ..

عادل لن يعرف طعم الرقاد ..

لا ، لن ينام و إلا وقد اكتشف سر المارد الجبار ..
وطال سهر عادل ..

وبدأت الساعة تميل إلى احتضان الفجر ..
والمارد الجبار لم يطل .
وأخيراً ..

وبعد طول انتظار سمع عادل البسام وقع أقدام خفيفة في
بهو القصر ..

فأرهب أذنيه ..

وتأهب لأطلاق الرصاص ، وقد وضع يده على زناب المسدس
متأهباً لشد الزناد وإطلاق الرصاص ..

وإذا بوقع الاقدام يقترب من باب الغرفة ..
وكان الباب مفتوحاً ..

فقد حرص عادل على ترك الباب مشرعاً ليفري المارد
بالدخول الى غرفته ..

وفجأة وقف شبح طويل القامة متشح بالسواد في الباب ،
محاوياً الدخول ..

وإذا بعادل يصوب المسدس الى الشبح ويطلق الرصاص .
وتراجع الشبح الى الوراء .

وراح يعدو في أروقة القصر .

وهب المقتش يركض وراء المارد المتشح بالسواد من رأسه
حتى أخمص قدميه .

واستفاق بديع مذعوراً على دوي الرصاص ..
وراح يبكي كالأطفال ..
وأسرع المارد بالانزلاق نحو القبو سائراً في الدهاليز ...
وكان يسير عدواً بسرعة هائلة ..
وقد عجز بهاء وعادل عن اللحاق به .
ووصل المارد الى قبو النبيذ فدخل اليه ..
وتبعه عادل والشاعر ، فدخلوا الى قبو النبيذ ..
وما ان دخلا حتى أوصدا الباب وراءهما ..
وإذا بالمارد يدخل من قبو النبيذ الى قبو الفحم والخطب
ويوصد الباب وراءه ايضاً ..
وأصبح المفتش والشاعر سجينين في قبو النبيذ ..
ليس لهما منفذ للخروج .
ولم يعلموا كيف أوصد البابان ، باب الدهليز الى قبو النبيذ ،
وباب قبو النبيذ الى قبو الخطب ..
وكل ما علما هو انهما سجينان ..
وراح عادل يعمل على فتح أحد البابين ..
إلا انه عجز ..
فأخذ يطلق الرصاص على الباب محاولاً تحطيمه ..
إلا ان الرصاص كان يستقر في الباب الخشي المتين المصنوع
بالحديد ..
وإذا بالاثنين ، المفتش عادل البسام والشاعر بهاء العواد ،

يسمعان قهقهات مخيفة ، وصوتا رهيباً داوياً في ذلك القبو
المخيف مزجراً :

« هنا ستموتان .. هنا ستموتان .. الارواح الشريرة ستنتقم
منكما انتقاماً رهيباً ايها الشقيان .. »

واستمر عادل البسام في إطلاق الرصاص على الباب محاولاً
تخطيئه للخروج من القبو ..

إلا ان الباب المتين لم يتحطم .

ووثب بهاء الى عادل يدعوهُ الى الكف عن إطلاق الرصاص

وقال :

– ليس ثمة فائدة من إطلاق الرصاص يا عادل فالرصاص لن

يحطم الباب ، احتفظ برصاص مسدسك فقد نحتاج اليه ..

وكان صوت المارد الجبار يتصاعد كالرعد من الخارج ، وهو

يهدد ويتوعد وينذرهما بهجوم الارواح عليها والاقتصاص منها

اقتصاصاً رهيباً .

ولم يخش الشابان تهديده ..

فهما على يقين من ان ليس ثمة أي روح شريرة تقوم بالاعمال

التي مثلت في قصر وادي الجماجم ..

بل هما كانا على يقين من ان المارد ليس إلا إنسان مثلهما ،

وانه لص كبير يقوم بتلك الشعوذات والاعمال ليخيفها ويقصيها

عن القصر ..

وانصرفا معاً الى فتح الباب .

إلا ان الباب قاوم .
فلم يكن ليفتح أمام محاولتها .
وخشياً أن يقضيا جوعاً وعطشاً في ذلك القبر الموحش المظلم
الكنيب .

وكان كل ما حولها ظلام في ظلام .
والهواء رطب في ذلك القبر الخفيف .

وتذكر عادل أنه يحمل في جيبه مصباحاً كهربائياً صغيراً
فأمسكه وأثاره ليستعين به .

وشاهد خواصي وبراميل الخمر في ذلك القبر .

هذا القبر هو قبر النبيذ .

هكذا كان يسميه صاحب قصر الجماجم . والتفت عادل
إلى البسام إلى بهاء يقول : نستطيع ان نطمئن إلى أننا سنحيا اسابيع
عدة ما دمنا هنا في قبر النبيذ . سنشرب الخمر فيدفع عنا
الموت جوعاً وعطشاً أياماً طوالاً .

قال بهاء :

– ولكن هل تقدر لنا الحياة طويلاً في هذا المكان ؟

قال عادل :

– من يدري ! قد لا يقدر لنا الخروج منه إلى الأبد

وعادا معاً إلى محاولتها فتح الباب على ضوء المصباح الكهربائي
وقال بهاء ، بعد محاولة طويلة : فلندع محاولتنا فتح الباب

الى الصباح كي نستطيع ان نحتفظ بنور الصباح لعلنا نحتاج اليه في المستقبل .

واستلقيا على الأرض يستريحان من عناء العمل ،

وكان صوت المارد الجبار قد اضمحل .

وساد السكون والهدوء في الدهليز .

فليس ثمة حركة ولا همسة ولا حفيف ولا صوت .

وانصرف كل منهما الى التفكير في المصير المقدر لهما .

هل يمكنها الخروج من ذلك المكان الشديد الظلام ؟

أم ترى بقضيان نجبها هناك ؟

وكانت فكرة الحياة تتقلب أبدأ في رأسها على فكرة الموت

من المؤكد ان الحياة ستكتب لهما وسينجوان من ذلك القبو .

سينمكتان من فتح الباب والخروج

وعندئذ سينصرفان معاً الى محاولة فتح أو تحطيم أحد

البابين ، الباب المؤدي الى الدهليز ، أو الباب المؤدي الى قبو

الخطب والفحم .

إلا ان تلك الأفكار . أفكار النجاة ، بدأت تتوارى لتحل

محلها افكار اليأس بعد أن بدأ النور ، فور الفجر يتسرب من

كوة صغيرة عالية الى القبو فيشاهدان ضخامة البابين وقوتها ،

واستحالة تحطيمها ..

وأدرك الاثنان - عماد وبياه - ان فتح البابين

والخروج من القبو ضرب من المحال .

ومع كل اقتناعها باستحالة تحطيم البابين فقد انصرفا الى المحاولة ، وراحا يعملان على تحطيم او فتح أحدهما .
فأخذ عادل يعمل بوسائل شتى على فتح الباب المؤدي الى
قبو الفحم ، في حين انصرف بهاء الى فتح الباب المؤدي الى
الدھليز .

إلا ان لا هذا نجح في مسعاه ولا ذلك .
الاثنان أخفقا ..

والتفت عادل الى بهاء يقول : ماذا يا بهاء ؟ ماذا ترانا
فاعلين ؟

وأجاب بهاء : لست أدري ، يا عادل أرى ان خروجنا
من هذا المكان الخيف صعب جداً . وأنت ؟ ألا ترى ما
أرى أنا ؟

وأجاب عادل . وهذا ما أراه أنا . تعال نشرب قليلاً من
الخمر لعل الخمر يبعث فينا النشاط والقوة والأمل .
وأطبقا على « خابية » ملى بالنبيد المعتق يغبان منها
ولا يرتويان .

الفصل الثاني

أقام بديع النادر في غرفته بعد ان اطلق رجل الأمن عادل بسام الرصاص على الشيخ تلك الليلة ولحق به ، على خوف وجزع واضطراب .

وكانت اسنان بديع تصطك من الخوف لا سببا بعد ان لحق المتش عادل بسام بالمارد الجبار ولم يعد .

وأقام بديع على انتظار ممض ..

إنه لينتظر عودة عادل .

إلا ان انتظاره طال ، وعادل لم يعد .

وأيقن بديع ان المارد الجبار فتك بعادل كما فتك بزميله مفتش الامن الذي جاء قبله لاكتشاف جريمة مصرع واختفاء شيخ قصر الجهاجم ..

وأقام بديع ينتظر بزوغ الفجر على أحر من الجمر كي ينهض من سريره ويتوجه الى غرفة بهاء .

ولم يكن يعلم ان بهاء ايضاً لحق بعادل وراء المارد الأسود الطويل ..

وما ان اطلت نوار الصباح ، حتى راح بديع النادر يتمم
بعض الآيات الروحانية محاولاً طرد الارواح الشريرة بها .
ثم نهض من سريره على خوف شديد وسار بوهن الى غرفة بهاء .
ووصل إلى الغرفة .

وراح ينادي من الخارج :

- بهاء ! بهاء ! اين انت ؟ يا بهاء ؟ رد علي يا بهاء ، أجبني .
ولم يجبه أحد .

فعاد إلى تمتمة الآيات الروحانية .

ثم دخل إلى الغرفة ليرتد مذعوراً .

فهو لم يجد بهاء في سريره .

وأيقن كل اليقين ان الارواح لم تكتفِ بقتل مفتش الأمن
وإخفاء جثته ، بل هي عمدت إلى الفتك ببهاء أيضاً وأخفت
جثته ..

تماماً كما فعلت بشيخ قصر الجماجم ورجل الأمن السري .
وبدأت اسنانه تصطك من الخوف ..

وعزم على الخروج من ذلك القصر فوراً قبل ان يصل شر
الأرواح الشريرة اليه .

فعاد ادراجه الى غرفته محاولاً ارتداء ثيابه والخروج من القصر
وراح ، وهو يرتدي ثيابه ، يندب صديقه بهاء ويبعكه
بأحر العبرات والدموع ، ويتمتم :

« يا ضياع شبابك الغض يا بهاء . لو أذعنت لرأيي وعدت

معي إلى المدينة لما ذهبت طعماً للأرواح الشريرة ، يا

لهف قلبي على شبابك يا حبيبي يا بهاء .. »

وكانت الدموع تنهمر غزيرة على خديه .
وكان حزنه شديداً ..
حتى كاد الحزن على بهاء يذهب من قلبه بالخوف .
وعاد إلى التفكير بصديقه الحبيب بهاء .
أيجوز ان يتركه في ذلك القصر الرهيب ويعود الى المدينة ،
وسلمى ، حبيبة بهاء ، ماذا ستقول له ، وقد علمت انه ترك
صديقه فريسة للارواح في ذلك القصر وعاد إلى بيروت ؟
وراح بديع يفكر بطريقة يستطيع بها اكتشاف مقر بهاء .
وطال تفكيره دون جدوى ..
وأخيراً ، وبعد تفكير طويل جال في خاطره فكر بعيد :
قبو النبيذ . ألا يجوز ان يكون بهاء في قبو النبيذ ؟
كل شيء يجوز ، فهو يعرف الطريق إلى قبو النبيذ .
ذلك الطريق الذي سلكه مع بهاء في اليوم التالي لوصولها
إلى القصر . ومن قبو النبيذ خرجا إلى قبو الحطب ، وفي قبو
الحطب هاجمها المارد الجبار .
ولكن دون الوصول إلى قبو النبيذ تخاطر وأهوال .
عليه ان يسير في الدهليز المظلم الخفيف قبل وصوله إلى القبو .
فهل تقدر له النجاة في ذلك الدهليز ؟
ليجرب حظه . فهو ليس بأفضل من بهاء .
ولكن هل هو سيجد بهاء في ذلك القبو ؟
وإذا لم يجده ؟
وإذا هاجمته الأرواح أيستطيع ان يصددها وينجو من

أخطارها وقوتها وبأسها؟

وطان تفكيره ..

واخيراً ، وبعد تفكير طويل عزم على الذهاب إلى القبو ،
وليكن ما يريد الله .

وأسرع إلى مصباح من زيت يضيئه ويحمله ويسير في الدهليز
وهو يرهف أذنيه لكل همسة ، ولكل حركة .

وكان الخوف الشديد يهز كيانه ويعبث به ..

ويبعث الوهن في ركبتيه والارتجاف إلى يديه .

لقد كان في حال مؤسفة تثير الأسف والضحك في وقت

واحد .

وكان بديع يسير على مهل ، وهو يرهف أذنيه لكل همسة

واكل حركة ولكل صوت .

وكان الهواء يهب بارداً في الدهليز .

ونور الصباح يتسرب ضئيلاً جداً إلى الدهليز ، فيضعف نور

الصباح الزيتي الشاحب

واقترب بديع من باب قبو النبيذ ..

وشاهد الباب مقفلاً فازداد رعباً .

وأدرك ان المارد الجبار هو الذي اقفل الباب .

وعزم على العودة ادراجه قبل ان يلحق به المارد ويخمد

أنفاسه .

وقفل راجعاً ادراجه بسرعة ..

إلا ان السرعة التي سار بها أثارت الهواء في الدهليز فانطفاً

المصباح وأصبح بديع في الظلام .
ووقف بديع في الدهليز على رعب ، وقد انطفأ النور .
ولم يحرك على المسير ..
لا إلى الورا ولا إلى الأمام .
وشعر بحاجته إلى البكاء فراح يبكي بصوت مرتفع فيذهب
صوت بكائه في الظلام بعيداً ..
ويدرك وراءه صدى متجاوباً في ذلك الدهليز على رنة
وانطلاق ..

وسمع بهاء وعادل في قبو النبيذ صوت البكاء .
فأدرك بهاء ان الصوت صوت بديع .
ولاح له الأمل قريباً بالنجاة ، ما دام بديع في الدهليز ..
وراح يناديه بصوت عالٍ :
- بديع . ا . بديع . ا . بديع . ا .
وسمع بديع صوت بهاء منادياً فدبت الجرأة في قلبه .
وهرول مسرعاً نحو باب القبو ، وهو ينادي : بهاء . ا . بهاء
يا حبيبي يا بهاء أين انت ؟
وقال بهاء من داخل القبو :
- انا هنا ، انا هنا ، لا تخف يا بديع اقترب .. اقترب من
باب القبو لا تخف ..

واقترب بديع من باب القبو ، وقال :
- اخرج يا بهاء ، اخرج ، انا خائف وحدي هنا .
وقال بهاء :
- لو اننا نستطيع الخروج لما بقينا دقيقة واحدة في هذا القبو

المظلم البارء النتن

- ألا تستطيع الخروج من القبر ؟ ولماذا ؟

- الباب مقفل يا بديع .

- ومن أقفله ؟

أقفله المارد .

- المارد ؟ أتريدني ان ابقى هنا والمارد يقفل الابواب ويفتك

بالجميع . إذا كنت انت الجريء مع المفتش القدير لا تستطيعان

التغلب على المارد الجبار اتريدانني أنا المسكين ان اتغلب عليه .

الى اللقاء يا بهاء الى اللقاء ايها الصديق الوفي العزيز ، سنجتمع في

العالم الثاني ان شاء الله ، أنا ذاهب ، انا عائد الى المدينة .

وخشي بهاء ان يعود بديع من حيث أتى ، ويتركها في

ذلك القبر .

فقال له :

- لا تخف المارد يا بديع لقد فتكنا به المفتش عادل

البسام اطلق الرصاص عليه وأرداه . انه هنا في هذا القبر

أمامنا جثة هامة ..

- صحيح ؟ . المارد الجبار مات ، ولا خوف منه إذن ؟

- بكل تأكيد . لا تخف ، افتح لنا الباب ، افتحه .

وأطبق بديع على الباب محاولاً فتحه .

وبديع ذو قوة هائلة .

فهو مفتول الساعدين ، طويل القامة عامر الصدر .

إلا انه جبان ، فهو يخاف حتى من أفعه الاشياء .

ولا يحرؤ على التصدي للأخطار .

وقد أدرك بهاء ان بديعاً يستطيع فتح الباب من الخارج
ان هو أمن شر المارد وخيل اليه أنه مات .

وراح بديع يعمل جاهداً على فتح الباب إلا انه لم يستطع
الى ذلك سبيلاً ، لأن الباب كان متيناً وكان من الخشب القوي
المصنع بالحديد وهو مقفل إقفالاً محكماً .

وادرك بديع ان الباب لن يفتح بمجرد الشد به ، وانه
بحاجة إلى مطرقة حديدية او الى منشار او الى آلة حديدية متينة
فقال :

– الباب متين يا بهاء . لن استطيع فتحه بيدي ، سأعود
الى القصر فافتش عن آلة حديدية استطيع بواسطتها ان افتح
الباب المتين ، سأعود حالاً .

وعاد ادراجه الى القصر ، وهو يغني :

– لن يخاف بعد اليوم وقد صرع المارد الجبار .
الخطر من المارد قوارى الآن .

سيرتاح بديع من شره ومن أهواله ..
ووصل بديع الى القصر .

وراح يطوف جميع غرفه وسراديه باحثاً عن مطرقة او
عن آلة حديدية يستطيع بواسطتها تحطيم الباب وإنقاذ رفيقه
والمفتش من السجن .

ولم يطل بحثه .

ولا طال تفتيشه .
فقد عثر على مطرقة كبيرة تستعمل لتحطيم الحجارة
وتكسيروها .
وهرول مسرعاً الى الدهليز في طريقه إلى قبو النبيذ ، وهو
لا ينقطع عن الغناء والانشاد .

ووصل الى القبو .
وراح يعمل يجهد على تحطيم الباب .
وكان ينهال على الباب بالمطرقة الكبيرة فتحدث الشرقات
دوباً شديداً يذهب صدها بعيداً في ذلك الدهليز الطويل .
وطال عمل بديع والباب لا يتحطم ولا يفتح .
وبعد عمل شاق دام زهاء ساعة بدأت أقفال الباب تتحطم
تحت مطرقة بديع .
وبدأ الباب يتأهب للافتتاح .
وإذا بيدين كبيرتين طويلتي الأصابع تطبقان على عنق بديع
من الورا .
وتشدان العنق بقوة هائلة .

وذعر بديع للمفاجأة ، وأطلق صرخة داوية اهتزت لها
اركان ذلك الدهليز .
وسقط بديع الى الارض فاقد الرشده .

وأدرك بهاء وعادل ، وقد سمعا الصراخ ان المارد
الأسود خرج من قبو الحطب وعاد الى القصر ومن القصر سمع

طرقات المطرقة في الدهليز فأسرع الى الدهليز ليحول دون إنقاذها .

- ووثب عادل الى الباب يرفسه .
- فبدا الباب يفتح تحت رفسات رجل الأمن .
- مطرقة بديع حطمت الأقفال .
- وأصبح فتح الباب أمراً سهلاً .
- وأسرع بهاء الى مساعدة عادل .
- وراحا يشدان بالباب بكل قواهما .
- فتمكنا من فتحه بعد جهد طويل .

ووثبا الى الدهليز ليجدا بديع ملقى على الارض وهو منغمى عليه .

وحمله وسارا به في الدهليز .

وصعدا الى القصر .

- وهناك في غرفة النوم ، وضعا بديعاً على السرير .
- وانصرف بهاء الى إسعافه بالماء وبالتدليك .

وأدرك بهاء ان بديعاً لم يفقد رشده إلا بسبب الخوف الشديد الذي ابتابه ، بالرغم من ان أصابع المارد كانت قد تركت أثراً في عنقه .

وبعد إسعاف طويل فتح بديع عينيه على ذعر ، وتمتم :

– المارد الاسود الجبار .. المارد .. المارد ..

وقال بهاء :

– لا تخف يا بديع لا تخف ، المارد الجبار تواري عن القصر ،

لقد هرب ، لا تخف .. لا تخف .
ولكن الخوف كان قد استبد ببديع .
وكان يرتجف من الخوف بصورة تدعو الى القلق .
فعاد بهاء الى إسعافه وإلى تشجيعه :

– لا تخف ، لا تخف ، لا تخف .. أنت انقذتنا من الموت
يا بديع ، انك لشجاع . لن تنسى لك هذا الجميل . نحن هنا
لندافع عنك .

وتقدم عادل منه مشجعاً :

– نحن سنقضي على المارد الأسود . وهذا المسدس الذي
أحمله كفيل باخماد أنفاسه . انهض ايها السيد بديع ، انهض
واتكل على صديقك عادل .

واستوى بديع في السرير على ذعر واضطراب ، وتمتم :

– قبل ان تحميني احم نفسك . لقد كاد المارد يفتك بك
وبهذا المجنون بهاء ، هذا المارد ليس من لحم ودم ، ليس من هذا
العالم ، انه روح ، انه من العالم الثاني . لن يؤثر فيه رصاص
مسدسك . انه ليهزأ بك وبرصاصك وبقتلك ، أنت ام تراه .
أنا رأيتُه وشاهدت أصابعه الطويلة تطبق على عنقي وقشده
كأنها كلابتين قويتين . يا له من مارد نحيف مرعب صارع . إذا
كنتما لا تزالان على بقية من العقل اخرجنا حالاً من هذا القصر
الذي تسكنه الارواح الشريرة واسرعا بالعودة الى المدينة قبل
ان تقتك الارواح بكما وتقتني على شبابكما الفض النضير .

وضحكا : يا لك من شاب طيب القلب . أتخاف الأرواح
وأنت من جسد وروح : لا تخف ، لا تخف .
وحاولا تشجيعه .

إلا ان بديعاً كان يرتجف من الخوف .
وعاد الى الالحاح في ضرورة الرحيل عن القصر قبل أن
تفتك الأرواح بهم وتقضي عليهم .

وقال عادل سائلاً :

– هل رأيت المارد الأسود أيها السيد بديع ؟

قال بديع :

– أجل لقد رأيته ، وأنا ما زلت حتى الآن ارتجف لهول

منظره .

هل تستطيع ان تصفه لي ؟

– انه طويل القامة ، أسود الوجه ، أسود الشعر ، أسود
الثياب ، فكأنه غراب مغموس بالليل . ليس هناك سوى عينين
تلمعان في السواد فتخيفان الناظر اليهما او بالأحرى الناظرين اليه .

قال عادل :

وأين أتجه بعد ان حاول خنقك ؟

قال بديع :

– لست أدري . لقد اغمي عليّ بعد ان أطبقت أصابعه عليّ

عنقي ولم أعد أعي شيئاً .

والتفت عادل الى بهاء ليقول :

– انني لأؤكد ان المارد لا يزال في الاقبية تحت هذا القصر .

وهو يحمل في صدره سر اختفاء عمك . يجب البحث عنه .
والقبض عليه .

وخاف بديع خوفاً شديداً ، وكلام عادل يقم منه في
الاذنين .

وحاول ردع الرجل عن عزمه .

إلا ان عادلاً شهر مسدسه بعد ان حشاه بالرصاص مجدداً
وسار الى الأقبية بطريق الدهليز باحثاً عن المارد .
ولحق به بهاء .

وأقام بديع في غرفة النوم يبكي ويولول .

فكانه في مناحة عامرة بالأسى .

وانصرف الاثنان الى البحث عن المارة في الدهليز .

وكان بهاء يحمل المصباح ، وعادل بشهر المسدس .

وسارا في الدهليز دون ان يقفوا للمارذ على أثر .

ودخلا الى قبر النبيذ المحظم الباب الذي كانا مسجونين فيه

يفتشان عنه .

إلا انها لم يجداه .

وخرجا من قبر النبيذ ليدخلا الى قبر آخر .

ومن القبو الآخر خرجا الى قبر آخر .

ومن القبو الآخر خرجا الى غيره ايضاً .

وطافا اقبية عدة باحثين عن المارد . ولكن دون جدوى .

وطال بحثها دون ان يقفوا على ما يشير الى وجود أي أثر .

للمارد الخفيف .

وأخيراً عادا الى القصر ، في الطريق الذي اجتازاه ذهاباً .
ودخلا القصر .

وتوجها الى غرفة النوم حيث تركا بديعاً .
وكم كانت دهشتها عظيمة عندما وجدا الغرفة خالية خاوية .
بديع ليس في السرير وليس في الغرفة كلها .
وكان أثاث الغرفة مقلوباً رأساً على عقب .

بما يدل على ان معركة طاحنة جرت في تلك الغرفة .
وأدركا ان المارد الاسود اغتتم فرصة خروجهما ، فوثب الى
القصر واختطف بديعاً .
وطار به بين الارض والسماء .

وراح عادل يبعث في أرض الغرفة عنه يقع على أثر تركه
المارد وراءه .

إلا انه لم يقع على شيء .

والتفت إلى بهاء يقول :

- انني اؤكد لك ان المارد لا يزال في هذا القصر مع بديع
ويجب أن نبعث عنهما .

قال بهاء :

- انني أخاف ان يؤدي المارد بديعاً ، وأنت تعرف رفيقنا
بديعاً فهو يخاف كثيراً ، ويخشى ظله .

قال عادل :

- ثق ان المارد لن يؤدي بديعاً الآن ، وسنكشف مقرهما

فبل ان يتمكن من الفتك به . تعال معي نبحث عن بديع قبل
فوات الأوان .

وسارا إلى الدهليز ، وهما يستعينان بنور شاحب أصفر .
اللون منبعث من قنديل زيتي عتيق .

وكان الظلام الشديد يغمر تلك الدهاليز والأقبية الممتدة
تحت القصر التي تنبعث منها رائحة العفونة والنتانة .

وطال بحشها وتفتيشها ولكن دون جدوى .

وأخيراً وصلا إلى قبر مظلم تثن بعيد .

فاذا بها يسمعان همساً وشوشات بعيدة .

ووقفا .

وأرهما آذانها يسترقان الهمسات :

إلا انها لم يتمكننا من سماع كلمة واحدة بوضوح بما يدل على

ان مصدر الصوت بعيد جداً .

والتفت بهاء الى عادل البسام يقول :

- يجب ان نتقدم كي تتمكن من استراق الحديث . لن

نسمع كلمة واحدة ونحن في هذا القبر .

قال عادل :

- ولكن نحن في هذا القبر المقفل الأبواب أشبه بسجينين

ليس ثمة مدخل او مخرج لهذا القبر إلا الباب الذي دخلنا منه .

أتريد ان نعود ادراجنا ؟

قال بهاء :

- يجب ان يكون لهذا المكان منفذ آخر غير هذا الباب ،

تعال نبحت عنه .

قال عادل :

– يجوز ان يكون هناك باب آخر ، ولكن هل نستطيع

العثور عليه ؟

قال بهاء :

– يجب ان نفتش .

وبدا بهاء يفتش في الجدران عن الباب الثاني .

في حين كان عادل يساعده وهـ-و يحمل النور ليضيء

القبو ويطرد الظلام الدامس .

وطال تفتيشها .

ولكن دون جدوى .

ورأى رجل الأمن أن يستريح قليلا لأن التعب كان قد

أنهكها .

فقال لرفيقه الشاعر :

– تعال نستريح قليلا قبل استئناف البحث يا بهاء ، فالتعب

قد أنهك قوانا .

قال بهاء :

– أفي هذا المكان تريد الاستراحة يا عادل ؟

قال عادل :

– أجل في هذا المكان ، اتخاف ؟

فابتسم بهاء :

أنت تعلم ان الخوف لم يدخل الي قلبي ، فأنا أهزأ بالخوف

لأن الخوف وهم من أوهام الحياة الكثيرة ، وهم يخاف يا عادل .
الانسان مسلط على كل مخلوقات الارض . عندما خلق الله
الانسان أطلق يده على هذه الأرض في كل شيء ، حتى في الخير
وفي الشر ، إلا ان الانسان نفسه أبى ان يمارس سلطته التي منحها
إياها الله لأن الخوف كبّل يديه ، وأعمى عينيه ، وخيّم على عقله
الصغير ، انني اؤكد لك يا أخي ان اليوم الذي يتحرر به
الانسان من قيود الخوف سيكون يوم انتصار الخير على الشر ،
وربما كان ذلك اليوم نهاية الانسان على هذه الارض .

قال عادل : دعك من هذه الفلسفة الآن ، وتعال نستريح
قليلاً كي تتمكن من مواصلة العمل والبحث عن باب نخرج منه
إلى مصدر هذه الهمسات والوشوشات .

وجلس عادل على الأرض واتكأ بظهره على الحائط .

وإذا بالحائط يزاح وراء ظهره فيرتمش عادل ويهب واقفاً
على اضطراب .

وبدأ النور يتسرب الى القبو .

واتضح ان ذلك الحائط لم يكن سوى باب سرّي آخر لذلك
القبو وهو الباب الذي كانا يبحثان عنه .

وبفت الاثنان ، عادل وبهاء ، وقد فتح الباب فجأة امامها ،
وأسرعا بالدخول منه فاذا بها في قبو آخر .

وإذا بالهمسات تقترب منها ، بعد ان اقتربا مما منها ا

وتأكدتا من انها يسيران نحو مصدر الصوت

وكان ذلك الصوت أو بالأحرى تلك الأصوات تبعت الرعدة

في القلوب والرغبة في النفوس .

وكان الاثنان يسيران نحو مصدر الاصوات بخطوات متثدة ،
وعادل يضع يده على مسدسه استعداداً لاطلاق الرصاص عند
أول خطر .

وكان كلما اقترب عادل وبهاء من مصدر الهمسات ازدادت
الاصوات وضوحاً .

وسارا على مهل ، وهما يتعاشيان ارتفاع وقع خطواتها .
وبعد ان سارا مسافة قصيرة في ذلك القبو ، بدأت الأصوات
تتجلى فسمعا صوتاً خشناً يقول : هنا ستموت ، هنا ستموت ...
وسمعا صوتاً آخر يردد : رحماك ، رحماك .

وعرفا الصوت .

انه صوت بديع .

بديع مسجون في ذلك القبو .

ولكن من هو الذي يهدده بالموت ؟

من المؤكد انه المارد الاسود الجبار .

وعاد الصوت الى النتمة : الذين ماتوا قبلك هنا كثيرون .
أتريد ان ترى ، تعال ، هذه الجمجمة جمجمة شاب كان مثلك
يحشر انفه في اعمالنا فقضينا عليه ، وهذا الهيكل البشري هو
هيكل رجل قوي أراد ان يكشف أسرارنا فقضينا على روحه ،
أتريد ان ترى ايضاً .

ورد بديع :

— لا أريد ان أرى شيئاً ، لقد اكتفيت من خيرك ، مد الله

بعمرك وقدرني لأرد لك جميلك ، ولكن أرجوك ان تطلق سراحى .

وإذا بالمارد يطلق قهقهات مرعبة ارتجت لها أرجاء تلك الدماليز والأقبية المظلمة الموحشة الخيفة .

وقال : لم يدخل أحد الى هذه الأقبية وخرج منها سالماً . بل من يدخل إلى هنا يجب ان يموت هنا ، وأنت لست بأفضل من الذين ماتوا قبلك ومن الذين سيوتون بعدك .

قال بديع وهو يجيش بالبكاء :
— رحماكم رحماكم أنا شاب لم ارتكب جرماً ولا اقترفت ذنباً
لماذا تريدون قتلى ؟

قال المارد بصوته الخيف :
— يكفي انك دخلت الى هذا القصر ، هذه أكبر جريمة يرتكبها إنسان بحقنا .

قال بديع : ولكن من انتم ؟
قال : نحن ملوك الجن ، نحن الارواح المجنحة ، نحن الذين نقتل كل من تسول له نفسه الاقتراب من هذا القصر .

قال بديع : إذا كان لا بد من الموت فأرجوك ايها المارد العزيز أن تترك لي فرصة وداع صديقي بهاء ، اريد ان اودعه قبل ان أموت .

قال المارد : لا تخف بهاء سيموت مثلك ، وسيلحق بك الى العالم الثاني فتلتقيان هناك ، لا مجال للوداع هنا ، ولماذا الوداع ما دام اللقاء بينكما في العالم الثاني قريباً جداً ؟

قال بديع : ولكن بهاء شاب قوي ، وهناك رجل الأمن

ايضاً يحرسه فلن تستطيع التغلب عليها .
فقبحه المارد : نحن معشر الارواح لا نخاف رجال الامن
ولا نهرب مسدساتهم ولا تطالنا قوانينهم . البشر كلهم لدينا
سواء . من يؤذنا نقتك به ، ومن يبتعد عنا لا نعد اليه يداً .
قال بديع : أرجوك ان تطلق سراحي الآن وأنا أعدك
بأنني سأرحل فوراً عن هذا القصر .
قال المارد : لقد فات الأوان الآن ، كان عليك ان تخرج من
هذا القصر قبل أن تصل إلى هذا القبو ، أما الآن وقد وصلت
إلى هنا فلن تخرج ابداً . هنا ستموت هنا ستموت .
وعاد بديع إلى البكاء وإلى الاسترحام وإلى الاستعطاف
والرجاء : رحماك رحماك لا تقتلني رحماك .
إلا ان المارد مضى في قهقهاته وفي تهكمه .
وقال : لقد انقذت أنت صديقك بهاء ورجل الأمن من ذلك
القبو الذي سجنتمها فيه ، فأين هما اليوم لا ينقدانك ؟ . استعداد
للموت استعداد للموت .
قال بديع وهو يبكي : اني استعطفك بحياة اخوانك الجن
وعيون أهلك وانسابك الارواح المحترمة أن تعفو عني ولك
مني ما تشاء . أرجوك أرجوك أرجوك .
إلا ان المارد لم يجب بل سكت برهة ليعود إلى الكلام
فيقول : لك أن تختار الطريق الذي ستسير فيه إلى الموت .
هذا نبل مني . قل لي ، أتريد ان تموت جوعاً أم ذبحاً .
قال بديع : كل هذه الطرق ترفع الرأس . الذي تراه موافقاً

يا حضرة المارد . أنا شخصياً أفضل ان لا أموت ابداً ، أما إذا كنت حضرتك تصر على ان تميتني فاختر لي بنفسك الميتة المريحة وصحت المارد . لم يعد بهاء وعادل يسمعان إلا عويل بديع ونحيبه وبكاءه .

وابتعد عادل عن المكان الواقفين فيه والقريب من القبو حيث كان بديع والمارد .
وأشار إلى بهاء ليقترّب منه .

وعندما اصبحا بعيدين عن ذلك المكان قال عادل : انني اؤكد ان هذا المارد ليس إلا مجرماً كبيراً وهو بطل جريمة اختفاء عمك واختفاء زميلي رجل الامن .

قال بهاء : المهم الآن هو إنقاذ بديع من هذا اللص .

قال عادل : نحن الان في قبو قريب من القبو الموجود فيه بديع والمارد إلا ان هناك حائطاً يفصل بين القبوين ومن المؤكد ان هناك باباً بين هذا القبو وذاك وعليتنا ان نعثر على هذا الباب .
قال بهاء : ولكن علينا ان نسرّع قبل أن يقضي المارد على بديع . انني أخشى ان نصل اليه متأخرين .

قال عادل : إذن هيا بنا لنبحث عن ذلك الباب . أسرع ، ولكن إياك ان تحدث أي حركة تنبه المارد اليئنا فيفتضح أمرنا وعندئذ لا يعلم إلا الله ماذا يكون مصيرنا .

وبدأ الاثنان يبحثان عن الباب السري المؤدي إلى القبو المقيم فيه بديع .

وطال بحثها دون جدوى .

وفياهما يبهتان عاد صوت المارد يتصاعد من داخل القبو
ليقول مخاطباً بديع : لقد اعددت لك ميتة مشرفة ترفع الرأس .
ستموت بالرصاص . ما رأيك في رصاصة تخترق رأسك وتستقر
في نخاعك فتخمد أنفاسك فوراً ؟

فولول بديع : رحماك رحماك أعف عني ولك مني ما تروم ،
لا تلمطخ يدك بالدم .

قال المارد ضاحكاً : انني اؤكد لك ان يدي ليستا نظيفتين
فها قد خضبتا بالدم منذ أمد بعيد . ودمك الظاهر لن يزيد في
تلويثها .

وكان بهاء وعادل يسمعان حديث المارد وقلبيها يخفق ،
لا سيما عندما سمعا يقول لبديع : « ستموت بالرصاص » ، فقد
تأكدوا ان المارد يحمل مسدساً وان الوقت سيمر قبل ان يتمكنوا
من إنقاذ الشاب .

وكان قد يخيل اليها ان المارد سيترك بديعاً في مكانه يموت
جوعاً فتكون لها فرصة انقاذه ..

وإذا بصوت المارد يصرخ :

استعد للموت استعد للموت .

وإذا برجل الامن يعمد الى الحيلة لانقاذ بديع فيصرخ :

الويل كل الويل لك أرفع يديك .

وسمع المارد الصوت فارتد مذعوراً ، وقد كان على اعتقاد
راسخ ان ليس هناك احد في تلك الاقبية .

وارتد عن بديع .

وإذا بباب القبو القائم فيه عادل وبهاء يفتح .
 لقد كان ثمة باب سري .
 وإذا بالمارد الأسود ينتصب في باب القبو شاهراً مسدسه
 صارخاً بالفتش وبهاء وقد شاهدهما : هنا ستموتان ايها الشقيان .
 ودوى الرصاص .
 وكان مطلق الرصاص عادل البسام .
 فهو قد فاجأ المارد في إطلاق الرصاص من مسدسه .
 وكان قد استعد للمركة ، واختبأ مع بهاء وراء براميل عدة
 وأكياس وأخشاب ، وراح يمطر المارد بوابل من الرصاص .
 ولم يطلق المارد ولا رصاصة واحدة .
 وخيل لبهاء ان رصاص عادل أصاب المارد وقتله .
 إلا انه اتضح ان المارد لم يصب بالرصاص وانه يمكن هو ايضاً
 خلف الحائط بانتظار ان يفرغ مسدس عادل من الرصاص .
 وتنبه عادل إلى الخدعة ، فتظاهر بأن مسدسه فرغ . وانقطع
 عن إطلاق الرصاص .
 وإذا بالمارد يبادر إلى الهجوم بإطلاق الرصاص بوحشية على
 عادل وبهاء .
 وكان بديع مستلقياً على الأرض وهو يرتجف من الخوف
 ويغبرخ : ايها المفتش عادل اصرعه لا تخف ، اصرعه ، أطلق
 الرصاص ، ولكن إياك ان تصيبي برصاصة . أنا هنا ، انتبه .
 وكان في صراخه ، وبكائه ، واستنجاده ، وتحذيره يثير

الضحك والأسى في وقت واحد .
وأخذ المارد يطلق الرصاص بصورة تثبت . انه بارع في إطلاقه .

وكانت رصاصات مسدسه تتساقط حولها مختربة الجدران والاكياس والبراميل .
إلا ان الرصاص لم يصب أحداً منها .

وانقطع المارد عن إطلاق الرصاص ، وكان عادل ما زال يحتفظ بعدد من الرصاص في جيبه فحشا مسدسه وراح يرقب من المارد ان يطلق رصاصة كي يعلم مقره .
إلا ان المارد لم يطلق ولا رصاصة واحدة .
وأدرك عادل ان ما ينتظره هو ينتظره المارد ايضاً .
فاعتصم بالصمت وبالهدوء .

وراح عادل ينتقل من مكانه فيخضع المارد ويبادر بإطلاق الرصاص من مكان آخر .
 ووضع فمه على اذن بهاء وهمس : ازحف ورائي الى الناحية الشمالية . تعال ..

وزحف الاثنان زحفاً إلى الناحية الشمالية من القبو .
وكان الظلام الغامر تلك الأمكنة الخفية يساعدهما على الاختفاء ..

ودخلا إلى زاوية القبو الشمالية .
فكمننا وراء كيس كبير مليء بالخطب والأخشاب .

وأقاما ينتظران من المارد ان يطلق الرصاص ، وقد عزم
عادل على ان يقيم على انتظاره. مهأ طال الانتظاران يطلق الرصاص
بل هو سينتظر من المارد ان يكون هو البادى .

وما ان يطلق المارد الرصاصه حتى يكون عادل قد صوب
المسدس اليه وأطلق عليه رصاصه فيرديه فوراً .

ونخم الصمت الرهيب في تلك الأقيية .

حتى بديع نفسه انقطع عن الصراخ والنحيب .

وطال الصمت .

وأخيراً ، وبعد صمت طويل دوى الرصاص في القبر .

وكان مطلق الرصاص هذه المرة المارد .

واتضح ان الحيلة التي عمد اليها عادل هي نفس الحيلة التي عمد

اليها المارد .

فهو كذلك قد انتقل من مكانه إلى زاوية من ذلك القبر .

إلا ان مبادرته إلى إطلاق الرصاص أولاً كانت الجانية عليه .

فما ان لمع وميض الرصاص المنطلقة من مسدسه حتى كانت

عادل قد صوب المسدس الى مصدر الوميض وأطلق ثلاث

رصاصات دفعة واحدة .

وإذا بالمارد يسرع بالهرب .

وكان وقع خطواته يمزق آذان الليل البهيم ، وهو يركض

تاركاً وراءه صدى خطواته في تلك الأمكنة .

ولحق به عادل .

وراح يطلق عليه الرصاص في الظلام مسترشداً بصوت وقع
خطواته .

ولم يبادل المارد عادلاً إطلاق الرصاص ، مما يشير الى ان
مسدسه قد فرغ من الرصاص ، وانه بات راغباً في الهرب انقار
للرصاص الذي كان ينهمر عليه
وحاول بهاء ان يلحق بالمارد .

إلا ان عادلاً منعه وقال له : لا يا بهاء ، لا تلحق به ، لعله
يريد أن ينصب لنا فخاً ، أنسيت ماذا فعل بنا عندما لحقناه في
المرّة الاولى ، وتمكن من إقفال باب القبو علينا . قف هنا لا
تتحرك .

ووقف بهاء قرب عادل ينتظر ان ابتعاد المارد .
وعندما تلاشى وقع الخطوات ، أثار عادل مصباحه
الكهربائي وراح يفتش عن بديع .
وقد لاح له بديع مستلقياً على الأرض يرتجف من الخوف
وهو على آخر رمق .

وساعده على النهوض .

ووقف بديع ، وهو لا يزال يرتجف من الخوف .
رقاده إلى الدهليز .

وهناك في الدهليز شاهد عادل على ضوء المصباح الكهربائي
الضئيل آثار دماء على الأرض .

فتأكد من ان رصاصه أصاب المارد ، وان تلك الدماء هي
دماء المارد الاسود الطويل .
وارتاح عادل وقد رأى الدماء .

وقال لبهاء : ان هذه الدماء ستكون لنا الدليل إلى المارد ،
سنتبها إلى أن تصل بنا إلى هذا المجرم الخطير .
هذا ما قاله عادل .

أما بديع فقد عاوده الخوف ، وقد شاهد آثار الدماء .
وقال للمفتش : الآن وقد أصيب المارد برصاصك فهو
سيئار منا ثاراً رهيباً ، لن يعفو عن أحد منا ، يا ويلنا ويا ويلنا .
وضحك عادل .

وقال لبديع :

– هل تأكدت الآن من ان هذا المارد ليس روحاً شريرة
بعد ان شاهدت الدماء

أجاب بديع

– أنا لا أصدق ، انني على يقين من ان الارواح الشريرة
تحتل هذا القصر ، يجب ان نرحل ، يجب ان نرحل عن هذه
الربوع .

وعاد عادل وبهاء الى المسير ببديع متتبعين آثار الدماء ،
ومسترشدين بالمصباح الكهربائي الشحيح النور .
وساروا في دهليز طويل مظلم .

ومن الدهليز دخلوا الى قبو فسيح الأرجاء يتسرب اليه نور النهار من كوة عالية جداً .

وكان ثمة للقبو باب كبير مروا منه الى دهليز آخر طويل مظلم رطب كئيب .

وساروا مسافة طويلة في ذلك الدهليز .

وكانت رائحة العفونة والنتانة في جنباته تزيد في كآبته ووحشته ورهبته .

وظلوا يمشون زهاء خمس دقائق ، الى ان انتهوا اخيراً الى قاعة فسيحة فيها مقعد وقنديل زيتي وابريق ماء وطاولة . ولاحت النفقات من رجل الأمن الى زاوية للقاعة فشهد ثوباً ممزقاً .

وتقدم من الثوب يرفعه بيده ويتميزه ليقول بدهشة : هذا الثوب هو ثوب عمك يا بهاء أليس كذلك ؟
وتميز بهاء الثوب ليقول :

— أجل ، انه ثوب عمي ، ان عمي البخيل كان يرتدي هذا الثوب منذ عشرات السنين ، ومن المؤكد انه كان يرتديه عندما اختفى .

وكانت آثار دماء المارد كثيرة في تلك القاعة ، مما يدل على ان المارد توقف في تلك القاعة لغرض ما .

وعاد الجميع يتتبعون الدماء الى دهليز آخر طويل .
وقال عادل ، وهو يمشي مع بهاء وبديع :

- إن إصابة المارد بالغة ، وأذا استغرب كيف استطاع ان يسير طيلة هذه المسافة والدماء تسيل منه .

وعاد بديع الى الارتجاف والخوف .

وقال : هل صدقتما الآن ان المارد روحاً شريرة . لو لم تكن له قوة الارواح لما استطاع ان يسير المسافة الطويلة دون أن يقع في إغواء شديد .

وضحك الاثنان ، عادل وبهاء ، وعادا مع بديع الى المسير .
وفجأة بعد مسير شاق وجدوا أنفسهم في غابة كثيفة الأغصان وارقة الظلال .

لقد كان ذلك الدهليز ينتهي إلى تلك الغابة الواسعة الأرجاء وتضح ان الغابة تبعد مسافة شامعة عن قصر وادي الجماليم .

لقد كانت أقبية القصر تنفذ إلى تلك الغابة البعيدة .
وهناك في تلك الغابة اختفت آثار دماء المارد الاسود الخفيف .

وكانت الساعة قد بدأت تشير إلى العاشرة ليلاً .
والراهبات ما زلن في جلستهن قرب الراهبة رفقة حول الموقد المتقد النار .

والعاصفة ما تزال تهب مجنونة هوجاء في جبال الأرز

مرسلة عويلها وأنيبها وصفيها في تلك الوهاد والجبال والوديان .
والجبال تندف قطنها الناصع البياض لتندج منه ثوباً رائعاً
فضفاضاً للطبيعة الساكنة الخرساء .

وقالت رفقة :

- الآن ، وقد دقت الساعة دقائقها العشر فلنذهب إلى النوم .
نحن لم نعود السهر إلى مثل هذا الوقت يا شقيقاتي .
قلن :

- وبهاء ؟ وبديع ؟ وعادل ؟ وشيخ قصر المهاجم ؟ والمارد
ماذا حل بهم ؟

قالت رفقة والدموع تغمر عينيها :

- إلى الليلة القادمة . إلى الليلة القادمة !
ونفضت الراهبات . وتوجهن إلى أسرتهن ، ومن يتمن
الآيات الروحية والصلوات المقدسة الحاشعة .

الفصل الثالث

وفي الليلة التالية ، بعد الصلاة ، جلست الراهبات حول
الموقد المتقد النار يصطلين ، ويقهرن البرد القارس بالهيب
المضطرب . وقلن لرفيقتهن :

– وبعدئذ ماذا جرى يا أختنا رفقة ؟

وعادت الراهبة الحزين إلى إكمال القصة الدامية فقالت :

« عاد بهاء العواد والمفتش عادل البسام إلى القصر .

وأقاما مع بديع على انتظار عودة المارد .

إلا ان المارد لم يعد .

فقد ظل عادل ينتظر عودة المارد ثلاثة أيام وليالٍ إلا ان

المارد لم يبن له أثر .

وقال بهاء :

– ماذا يا عادل . هل يعود المارد ؟

وأجاب عادل :

– لا أعلم . انني أشك بعودته المارد الأسود لن يعود ،

وقد أدرك أننا له بالمرصاد .

وقال بديع :

– يجب ان نعود إلى بيروت .. يجب ان نعود .. أتريدان ان تفسحا المجال أمام الأرواح الشريرة للفتك بنا ؟
فضحكا منه ..

وعزما على ألا يغادرا القصر إلا وقد اكتشفا سر المارد الأسود ، وسر اختفاء شيخ قصر الجماجم .
وبعد أيام ثلاثة جاء رسول إلى القصر يحمل بطاقة دعوة للمفتش عادل البسام .

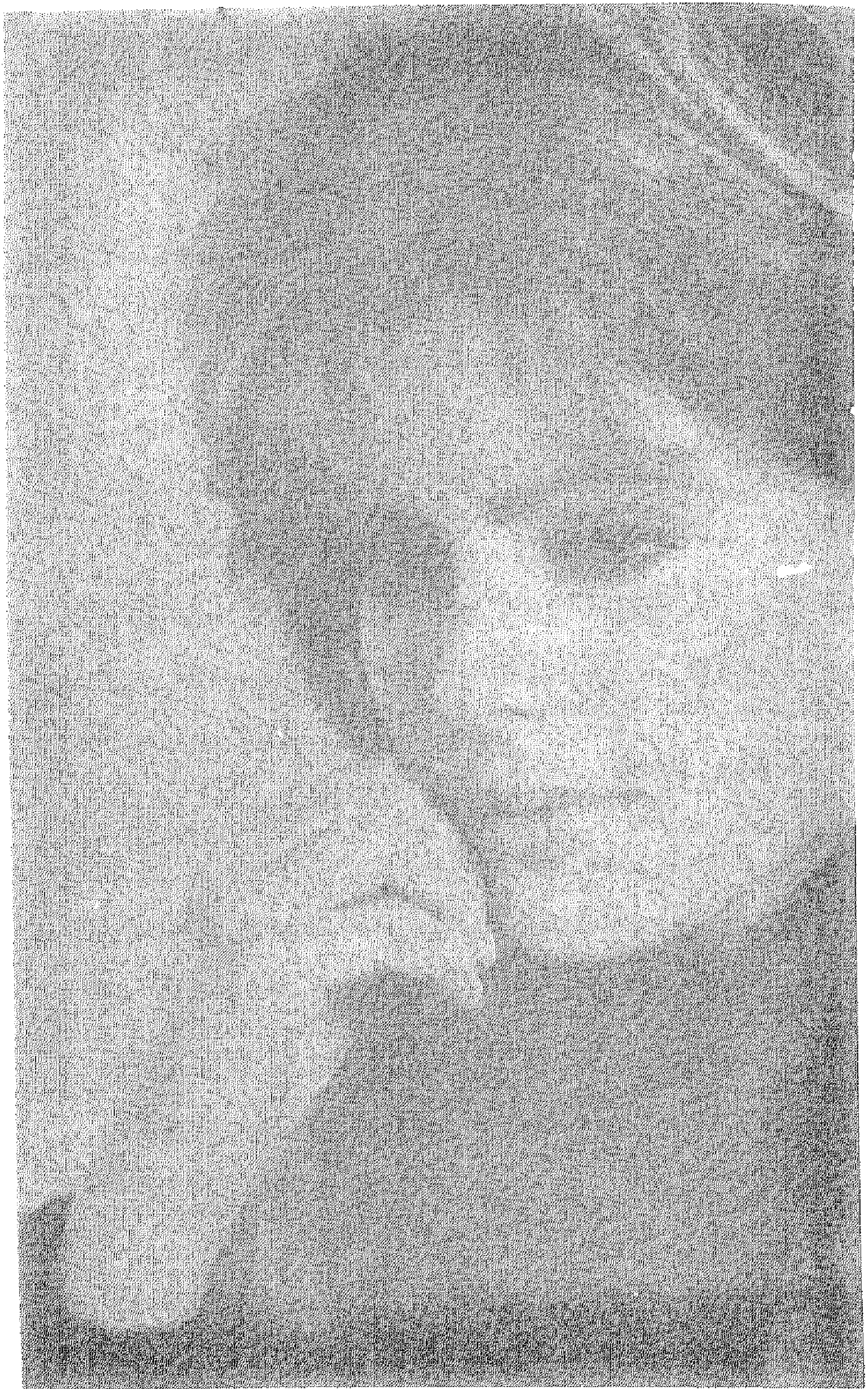
والبطاقة تلك كانت تحمل الكلمات التالية :

« ان السيدة رفقة منصور تدعو السيد عادل البسام لحضور الحفلة الراقصة التي تقيمها في قصرها في وادي الجماجم في الساعة التاسعة من ليل ١٩ آذار عام ١٩٢٠ » .
وسأل عادل :

– من هي السيدة رفقة منصور ؟

قال الرسول :

– انها سيدة هذا القصر الرابض هناك في سفح الجبل وسط غابة الصنوبر المطلة على الوادي .. انظر ، ها هو القصر .
ولم يكن ثمة في وادي الجماجم سوى قصرين .
قصر عم بهاء ، وقصر رفقة منصور .
أما ما بقي من المنازل فهي أكواخ صغيرة يسكنها
الفلاحون .



وعاد المفتش عادل البسام يسأل الرسول :
- ومن سيحضر هذه الحفلة ؟ وما هي المناسبة التي من أجلها
تقيم السيدة رفقة منصور حفلتها هذه ؟
قال الرسول :

- ان السيدة رفقة تقيم هذه الحفلة كل عام في مثل هذه
الايام احتفاء بعيد مولدها . أما المدعوون فهم بعض الوجهاء
والشخصيات الكبيرة .
قال عادل :

- سأحضر هذه الحفلة ..

وعاد الرسول يتخبر سيدة رفقة ان عادلاً سيحضر
حفلتها . فقاطعت الراهبة شمونة رفيقتها الراهبة رفقة لتقول :
ولكن من هي السيدة رفقة منصور ؟
قالت رفقة والدمعة تتمر عينها :

« انها الراهبة رفقة .. أنا هي .. لقد كنت سيدة ارتع في
غنى فضفاض وجاء عريض .. كنت املك ذلك القصر في
وادي الجماجم وكان عندي في القصر الخدم والحرس والجنود .
وقابت الراهبة سرد قصتها فقالت :

« وفي الموعد المضروب . وفي الساعة التاسعة من ليل العاشر
من آذار عام ١٩٢٠ احتشد في قصري جمهور غفير من الوجهاء
والحكام ورجال الصحافة والأدب والأعمال .
إلا اني لم أكن أفكر في تلك الليلة إلا بالمفتش عادل البسام .

فأنا أريد ان يحضر عادل حملتي . اريد ان أتعرف الى هذا الرجل .

ورحت أرقب حضوره بفارغ صبر .
ودقت الساعة التاسعة ، وعادل لم يحضر .
ودقت الساعة التاسعة والنصف .
ودقت الساعة العاشرة ولم يكن له أثر .
فخيل أليّ انه لن يحضر ..
ولكن عادلاً دخل فجأة الى قاعة الاستقبال .
وأدركت انه هو .

فوقف في الباب يجول بنظره في الحضور .
كان كالغريب بين المدعوين .
فتقدمت منه أصادفه .. واتمم :

– المفتش عادل البسام ؟ أليس كذلك ؟
فابتسم وقال :

– نعم يا سيدتي رفقة .
وقدته إلى الداخل ..

وجلست قربه في زاوية من زوايا الفرقة .
وكنت أرقدي فستاناً أبيض اللون غالي الثمن .
فراح عادل يثني علي ذوقه ..
وتحدثنا في كل شيء .

وسألته عن سبب حضوره إلى وادي الجماجم وإقامته في قصر الشيخ العواد .

فقال لي إنه موغذ للتحقيق في قضية إختفاء الشيخ العواد .
وقلت له :

- يقولون ان الارواح الشريرة هي التي اختطفت الشيخ
وهربت به .

إلا ان عادلاً ضحك بما
قلت وقال :

- أيتها السيدة رفقة!
هل تؤمنين بهذه الشائعات
المضحكة ؟

- إنني أو من بكل ما
يقال .

- لا ، قصة الارواح
اخترعها ذلك الذي
اختطف الشيخ .
- ومن هو ؟

- هناك عصابة تدعى
عصابة الموت وهذه
العصابة هي التي فتكت



بشيخ قصر الجماجم .

وتظاهرت بالخوف وسألته :

- عصابة الموت ا

- أجل ، ويقال ان هذه العصابة الفاتكة قضت على شيخ

قصر الجماجم .

– ومن قال لك ذلك

– لقد تأكدت ذلك بنفسى .

– وقصة الأرواح الشريرة ؟

– لقد روجها أعضاء هذه العصاية للتضليل .

وهنا اقترب الخادم الأعرج الأعور خالد مقدماً لنا الخمر ،
فتناولت كأساً قدمتها لعادل ، ثم أخذت أنا كأساً ورحت
أرشفها على مهل .

وعدت أسأل المفتش

– هل ستطول إقامتك في ربوعنا

– لن اعود الى العاصمة ، إلا وقد اعتقلت جميع أفراد
عصاية الموت .

– جميعهم

أجل جميعهم .

وسألته :

– وأين ابن شقيق شيخ قصر الجماجم : الشاعر المجنون ،
ألا يزال يقيم معك في القصر ؟

– ان بهاء العواد ابن شقيق الشيخ ليس مجنوناً ، إنه شاعر
كبير ، وهو شجاع إلى أبعد حدود الشجاعة ، أنا ما عرفت في
حياتي شجاعة مثل شجاعته ،

وهنا كانت الموسيقى قد بدأت تعزف .
وكان المدعوون قد قاموا الى الرقص .
فأمسكت بيد المفتش الشاب وقمت أراقصه .
وفيا كتنا نرقص معاً همست في أذنه :
- عادل ! .

- ماذا ؟

- أتعلم لماذا دعودتك إلى هذه الحفلة ؟

- لا !

قلت همساً : لاني احبك ..

فابتسم على دهشة وحيرة وقال :

- تحبينني ؟ وأنت تكادين لا تعرفيني إلا منذ دقائق !

- إنك على خطأ ، انا أعرفك منذ أمد بعيد .. لقد رأيتك

في بيروت منذ ثلاث سنوات ، ومنذ ثلاث سنوات وأنا اشتاق
لتعرف اليك .

ورحمت أمس في أذنه كلمات الحب والغرام .

وخيل إلى ان المفتش آمن بما أقول ..

وسألته وقد أشرف الرقص على الانتهاء :

- هل تعود الى هنا بعد ان ينصرف الجميع ؟

- ولماذا لا أبقى هنا منذ الآن ؟

.. لا ، لا يجوز ان تلفت اليك الانظار . اذهب معهم وعد
إليّ عند الفجر . سأكون بانتظارك في غرفتي . تدخل من الباب
الخلفي للقصر وتجد الخادم بانتظارك فيقودك الى غرفتي ..
قال : ولكن ..

فقاطعته : هذه فرصة سانحة لنا نحن الاثنين . لن تسع لنا
الفرص مرة ثانية . انني بانتظارك يا حبيبي .

وعدنا الى الشراب .

وكانت الحفلة صاخبة ..

وطلب القوم مني أن أغني فغنيت .

لقد انشدت اثنى عشر اناشيد عدة وغنيت بعض الاغاني المبتذلة ..

وراح الجميع يصفقون لي .

يصفقون لجوالي الباهر ولصوتي الشجي .

ولم يتصرف المدعوون إلا والساعة قد أشرفت على الثانية

بعد منتصف الليل .

وكان عادل البسام آخر من خرج من القصر .

وشد يدي ، وهو يصافحني .

وهمست في أذنه وهو يقبل يدي :

— اني بانتظارك عند الفجر .

فابتسم ..

وكانت ابتسامته تأكيداً لي بأنه سيعود .

وما ان ذهب الجميع حتى عاد الخادم خالد إلى القاعة .

وضحك .. وضحك .

وتوجه خالد إلى الابواب يوصدها .

ثم ينزع عن وجهه التنكر .

ويتنصب كالغصن الرطيب ...

ولم يكن خالد أعرج ولا أعور .

لقد كان شاباً طويل القامة عريض المنكبين قوي البنية .

وأطبق عليّ يميني إلى صدره ويقفه .

وقهقت معه .

خالد الخادم كان عشيقتي .. لقد كان رئيس عصابة الموت .

وأنا ، أنا رفقة الجلاسة الان امامكن يا رفيقاتي كنت عشيقته

رئيس عصابة الموت وكنت شريكته في جرائمه .

كانت عصابةنا تضم عشرة لصوص .

عشرة لصوص فقط . استطاعوا أن يرتكبوا عشرات الجرائم

الخفيفة المرعبة ويبعثوا الذعر في قلوب أبناء تلك الربوع .

وجلسنا أنا وخالد نتحدث .

وأخبرت خالد بأنني دعوت مفتش الأمن لزيارتي مسع مطلع

الفجر .

فضحك وقال :

— إذن ستتخلص منه الليلة ؟

— أجزل ، الليلة ستتخلص من عادل البسام بطعنة خنجر من
خنجرك المصقول يا حبيبي خالد .

قال خالد :

— لا يا رفقة . لن اطعنه أنا . انني لأخشى ان يشتبه بي
وقد تزعت عني تكري و عدت إلى حقيقتي . أنسيت ان عادلاً
رآني عندما كنت أقوم بتمثيل دور المارد الجبار في قبة قصر
الجماجم ، وانه أطلق عليّ الرصاص وأصابني في يدي ؟ ها يدي
ما زال الدم ينزف منها حتى الآن .

قلت :

— وما يضريك إن دو عرفك أم لا ، ما دام انه سيموت ؟
فليحمل معه سر التشرف بمعرفتك إلى القبر .

قال :

— الحقيقة اني أخشى ان يفلت من أيدينا . عادل البسام
ليس باللقمة السائفة التي يسهل ازدرادها .

فقهت ، وقلت :

— أيكون عادل البسام أفضل من رفيقه مفتش الأمن الذي
اعتقلناه وسجنناه في القبر ؟ . أم يكون أفضل من شيخ قصر
الجماجم الذي ما زال سجيناً في اقبيتنا حتى الان ؟ . أم تراه
أشد قوة وياساً من بهاء العواد الشاعر المجنون الذي حكمنا عليه
بالموت ؟



قال :

- لقد كان خالد وما زال يرسم الخطط ، وكنت أنت
وأفراد العصابة تنفذونها . وسيظل خالد الرئيس وستظلون أنتم
الجنود المنفذين أنا سأرسم خطة الفتك بالفتش عادل وما عليكم
إلا بتنفيذها . إسمعي يا رفقة . عندما يحضر عادل تتظاهرين
بأنك متيمة في هواه ، وتصبين له الخمر وتشربين وإياه . وعندما
يتعته السكر تسحبين خنجرك المصقول وتعدينه في ظهره ،
أو في صدره . اني اترك لك حرية الاختيار .

قلت :

- وإذا فشلت ، إذا لم أتمكن من الفتك به ؟

- الثقة بالنفس تفعل المعائب . ثقي بأنك ستوفقين في
الطعنة النجلاء ، ستوفقين .

قلت :

- إنني انفاعلة بما تأمر يا خالد أنا لم أخالف لك أمراً حتى
اليوم ، ولن أخالف لك أي أمر

وكانت الساعة قد بدأت تشير إلى الثالثة من الصباح ، فقلت

لخالد :

- إذهب الآن وقف أمام باب النصر الخلفي سيحضر

عادل وتقوده أنت بنفسك إلى غرفتي .

وقهقه خالد ، وقال :

– هل رأيت عشيقاً يقود لمشيقته « حبيبها » بنفسه ؟
وقهقت معه ، وقلت :

– إذهب واحضره إلي هنا ، وادع لي بالتوفيق والنجاح .
وطوقني خالد بيديه ، وقبلني وذهب .

*

وأغمضت الراهبة رفقة عينيهما كأنهما تستعيد الذكريات
الآفة ، وتمت

– « آه ، انني ما زلت اذكر هذه المأساة . انني اعيش
الآن بالذكريات المؤلمة الدامية الدامعة الخيفة ، وما انا اعني كل
فصل من فصولها ، وكل خطوة من خطواتها ، وكل كلمة من
كلماتها ، وكل حرف من حروفها .. وابكي ، انني ابكي
خطاياي الكثيرة وآثامي الثقيلة ، علّ دموعي قديتها فتخفف
الوطء عني ، .

قالت الراهبة شمونة

– وبعدئذ ماذا حدث يا رفقة

قالت رفقة وهي تمسح دموعها

وتنكر خالد مجدداً ، ووقف أمام الباب الخلفي ينتظر .
وطال انتظاره ، حتى مطلع الفجر البعيد .
وخيل اليه ان عادلاً لن يحضر .
إلا ان عادلاً حضر ، والفجر قد بدأ يتسلل إلى ثوب الظلام ،

فيوشحه بخيوطه البيضاء المخضبة بالدم .
 وشاهد عادل خالداً يقف أمام الباب فأيقن انه في انتظاره .
 وتقدم مفتش الأمن من خالد فألقى خالد عليه التحية :
 - صباح الخير يا سيدي .
 قال عادل :
 - صباح الخير .
 قال خالد :
 - السيدة رفقة بانتظارك ، تفضل .
 وسار خالد أمام عادل بقدمين ثابتتين .
 أما المفتش فقد سار على مهل .
 وبدأ منه انه على حذر .
 لقد كانت يده اليمنى في جيبه .
 وخالد كان يعلم ان يده تقبض على المسدس .
 وان مفتش الأمن متأهب لاطلاق الرصاص عند أي حركة
 يشتبه من خلالها بمكيدة ..
 وتجاهل خالد كل شيء .
 وتظاهر بالسهل .
 وسار أمام رجل الأمن في الممر الى المطبخ .
 ومن المطبخ خرج به الى البهو .
 ثم الى غرفة الطعام .

ثم الى غرفة الاستقبال .

ثم أصدده الى الطابق الثاني من القصر ، الى غرفتي .

ووقف خالد أمام باب غرفتي بطرقها .

وتتمت أنا من الداخل :

— من ؟

وأجاب خالد :

— انا ايتها السيدة رفقة .

قلت :

— ادخل .

ووثب خالد يفتح الباب ويتراجع إلى الورا .

وشاهدت عادلاً يقف بالباب .

فأسرعت الى ملاقاته .

ومددت له يدي مصافحة .

وقبلها .

والتفت الى خالد أقول له :

— أسرع يا خالد بإحضار النبيذ المعتق الى هنا ، أسرع .

واسرع خالد بالخروج ، وهو يتمدد إخفاء وجهه .

كان يقف في الظلام .

أما عادل فقد دخل الى غرفتي على ارتياح وهدوء وابتسام .

واوصدت الباب .

وجلست على مقعد وثير .

وجلس عادل بعيداً عني .

إلا اني نظرت اليه نظرة إغراء ، وقلت له :

– تريد الابداع عني يا عادل ؟

– اريد الابداع عن كل ما يخيف ، اذا اقتربت منك

أخاف .

– وممّ تخاف ؟

– اخاف ان احرق بالنار .

وقهقت وقلت :

– هل لمثلك ان يخاف امرأة مثلي ؟

– أجل ، الجمال يخيف ايها السيدة رفقة ، إنك لترتعبين في

جمال رحيب وهذا ما يخيفني .

وضحكت .

لقد كنت اعلم انني اربح على قمة الجمال .

وفي هذه الاثناء حضر خالد يحمل الخمر الفاخر المعتق ،

وبعض الحلويات والأثمار المحففة .

ووضع خالد الاثمار والخمر امامنا وخرج سريعاً وأغلق

الباب وراءه .

وامتدت يدي الى زجاجة الخمر تفتحتها وتملأ كأسين ، كأساً

لي وكأساً لعادل البسام .

وجلسنا نحسو الخمر .
وكننت أتظاهر بالشرب .
أما عادل فراح يشرب الخمر بينهم .
وطالت جلستنا .
وطال سكب الخمر ، وعادل البسام لم يسكر ، ولم يغب
عن رشده .

وبزغ الفجر .
وبدأ الصباح يبشر بالوثوب .
وخفت اقتضاح الأمر .
فعمزت على تنفيذ الخطة التي رسمها خالد قبل بزوغ الفجر
وتحسست الخنجر في صدري
وقبضت يدي على النصلة .
وتمتت : عادل ! أتجبنني ؟
وتم عادل : أحبك ؟
قلت :

— أجل هل شعرت نحو رفقة يعاطفة هائلة حيرى ؟
قال وهو يتعمد الخبث والمكر :
— انني لأحبك إذا كان لي في قلبك ذرة من هوى وغرام .
فاقتربت منه ، ويدي لا تزال قابضة على الخنجر .
وقلت :

– أتشك في حبي ، وقد جدت عليك بمواطني وشعوري
وقبلاتي ؟

فابتسم وقال :

– هذه كلها لا تعني الحب .

قلت :

– وماذا عليّ ان أفعل كي أبرهن لك عن حبي ؟

قال :

– اتعديني بأن تقدمي لي خدمة تبرهنين بها عن حبك

إياي ؟

قلت :

– أعدك .

قال :

– اريد ان اقف منك على مقر عصابة الموت .

فراجعت الى الورااء في دهشة ووجوم .

– أياكون هذا المفتش اللعين قد وقف على حقيقتي ؟

أياكون أدرك ان العصابة اتخذت قصري مقراً لها ؟ !

أياكون علم من أكون ومن هو خالد الخادم ؟

وتظاهرت باللامبالاة .

وقلت :

– أنا ؟ أستطيع أنا ان اعلم مقر عصابة الموت يا عادل ؟

قال :

- أجل انك لتستطيعين . أنا أعلم انك تستطيعين ان
 ترشدينني إلى مقر هذه العصابة .
 فضحكت متممة التضييل .
 وقلت : انك على خطأ يا حبيبي .
 وكانت يدي لا تزال تقبض على الخنجر في صدري متأهبة
 لانتزاعه وإغماده في صدر المفتش الخبيث .
 وكان عادل ينظر اليّ بدهاء في حين ان يده كانت لا تزال
 في جيبه .
 وادركت ان يده تقبض على المسدس في الجيب .
 وأيقنت ان عادلاً لن يتورع عن إطلاق الرصاص عليّ إذا
 قمت بأي بادرة تثير شكوكه وتبعث ظنونه .
 فتقدمت منه ، وقد تركت يدي الخنجر في هجمته في
 صدري تحت الثوب أقول : ما لنا وللعصابة يا حبيبي . تعال
 نرتو من حبنا قبل ان ينبلع الصباح ويستفيق الخدم .
 فاستوى عادل في جلسته على المقعد وقال : رفقة أنا أعلم ان
 عصابة الموت تحتل هذه الجبال والوهاد فتقوم بتمثيل دور
 الارواح الشريرة وتبعث الخوف في قلوب أبناء هذه الربوع .
 ولا اخفيك ان العصابة ارسلت احد اعضائها اللصوص الى
 قصر الجهاجم وهو طويل القامة ، يشبه إلى حد بعيد الخادم الذي
 يقوم على خدمتك والذي سمعتك تتادينه بإسم خالد ، وقد قام

هذا اللص بدور الشيخ محاولاً يبعث الخوف في قلبي وفي قلب
الشاعر بهاء العواد وصديقه بديع ، فأخفق ، ولم يوفق إلا في
إخافة بديع فقط ، أما أنا وبهاء ، فلم تأبه له ، وقد اشتبكت
وإياه بالرصاص وأصبته إصابة غير خطيرة ، وأنا مضطرباً رفقة
إلى اعتقال هذا الخادم والتحقيق معه لمعرفة مدى علاقته
بالعصابة

قلت ، وأنا اتظاهر باللامبالاة ، وبالهزاء : يا لك من رجل
بسيط القلب ، هل يخيل إليك أن خالداً عضو في العصابة
وأجرؤ على إيوائه في قصري ؟ ، أنك على ضلال هذا الخادم
معاق أبه ، وهو يقوم بخدمتي منذ عشرين سنة . لقد كنت طفلة
عندما جاء به والدي من إحدى القرى القريبة واستخدمه في
قصره ، وبعد موت والدي ظل هنا يشرف على إدارة القصر .
إنه رجل طيب القلب ، أتريد أن أدعوه الآن وتحدث معه
فيثبت لك صدق قولي ؟

قال عادل :

— لا يارفقة ، لا أريد أن التحدث إليه الآن . غداً سأدعوه
إلى قصر وادي الجماجم وأجقق معه هناك بحضور بهاء العواد .
فتظاهرت بالغضب الشديد ، وقلت :

— هذه إهانة لي . لن أرضى بها ، أنت تتهم أحد خدمني

باللصوصية .

قال :

انتي أرجو ان يكون بريثاً يا رفقة فيمود الى خدمتك .
وأيقنت ان هذا الرجل اللعين سيكتشف أمرنا ، إن نحن
لم نقض عليه وآمنت بما قاله خالد منذ برهة : « عادل البسام
لا يجوز ان يخرج من القصر حياً . هنا سيموت ، هنا سيموت » .
وعدت إلى الخمر أصبه في كأس عادل بسخاء .

يجب ان يسكر .
السكر يساعدني عليه .
وعاد عادل الى الشرب .
ولم يفعل الخمر به ما أردت له
لقد كان جباراً...
كان يشرب ولا يسكر .

ورأيت ان انفذ الخطة المرسومة قبل ان يفضعنا الصباح .
فابتعدت عن عادل وقد عزمت على ان أرشقه بالخنجر من
بعيد .

وأنا ماهرة في الرشق بالحرايب وبالخنجر .
لم يسبق ان أخطأت رشقي مرة واحدة .
ورآني أبتعد عنه .
فابتسم وقال لي :
- لماذا تبتمدين عني يا رفقة ؟ تعالي ، تعالي اجلسي الى
قربي .
وابتسمت له .

ومضيت في الابتعاد عنه .
 ووقفت أمام باب الغرفة .
 أما هو فقد عاد الى الخمرة يحسوها على مهل .
 وزقع الكأس عن شفتيه ونظر اليّ ليقول : لماذا تهربين مني؟
 ولم أجب .
 فنهض ، ووقف مستنداً إلى مقعد عال وثير .
 و فجأة سحبت الخنجر من صدري ورشقته به بسرعة فائقة
 ولم تغطىء رشقتي .
 فقد أصبته في صدره .
 وأطلق عادل صرخة داوية .
 وسقط على الارض ، والدم ينزف من جرحه بفزارة .
 ورفع يده إلى الخنجر محاولاً انتزاعه من صدره .
 فخنقت .
 ألم يميت ؟
 هل يستطيع أن ينتزع الخنجر ويرشقتي به؟
 وابتعدت عنه بحذر .
 . وأمسكت بمقعد محاولة اتقاء الخنجر به إن هو استطاع
 انتزاعه من صدره .
 وإذا بيده ترتخي وتفلت الخنجر وتسللنى في جسده بكل
 حركة .
 وأيقنت انه مات .

وثقدمت منه بخطوات متتدة ، وأنا أمسك قلبي بيدي .

ليس من السهل القضاء على إنسان .

القتل مخيف .

انه يخيف القاتل أكثر بكثير مما يخيف المقتول .

و كنت خائفة .

خائفة جداً .

كنت اتقدم من عـادل البسام ، من جثة عادل ، والخوف

يكاد يقضي عليّ .

لقد قتلت إنساناً .

أزهقت روحاً .

قضيت على شاب .

وشعرت ان ثمة منات الايدي ترفع الي لتزهق روحي

وتخمد انفاسي .

لقد شعرت ان عادلا ، ان روح عادل ، تشد بعنقي بقوة

هائلة .

إنه الوهم .

الوهم الذي يفعل العجائب في قلوب البشر و نفوسهم .

واقتربت من الرجل لأتأكد من موته .

و كنت ارتجف من الخوف .

و وصلت قرب الجثة .

وانحنيت فوقها اتفحصها .

فلاح لي ان الطعنة التي أصبته بها لم تكن مميتة .
لم يكن عادل البسام مصاباً في صدره كما لاح لي في بادئ الأمر .

لقد كان مصاباً في كتفه ، في أسفل كتفه من الأمام . أي ان الطعنة كانت فوق الصدر فكيف مات ، والطعنة غير مميتة .
واحترت في الأمر .

وفجأة خطر على بالي خاطر!
فاشدد ذعري . أترأه يتظاهر بالموت ؟
وحاولت الابتعاد عنه .

إلا ان عادلاً ، وقد كان فعلاً يتظاهر بالموت ، وثب اليّ محاولاً القبض عليّ .

وهربت ..

ولحق بي ، وقد انتزع الخنجر من صدره ورماه بعيداً .
واستطاع ان يمسك بثوبي الطويل قبل ان أخرج من الغرفة .
وشهر مسدسه وصوبه الى رأسي .
وصرخ لي : سافتك بك يا مجرمة . يا زعيمة عصابة الموت
ورئيستها ، يا رفقة .

وأدركت ان امري افتضح .

يا ويلى ا .

المفتش عادل البسام سيفتك بي ويثأر لنفسه مني .
ليس له إلا ان يشد زناد المسدس المصوب الى رأسي لتصبح
رفقة في عالم الأرواح .

وشدني المفتش بثوبي .

ثم أقلت الثوب الطويل الفضفاض ليمسك بيساره بيدي
ويضع فوهة المسدس بيده اليمنى على رأسي ويقول بغضب :

- قولي أين هو شيخ قصر الجماجم يا رئيسة عصاة الموت ؟
قولي وإلا أطلقت عليك الرصاص .

وحاولت التملص منه .

إلا انه لم يترك لي مجالاً للتملص ؛

فهو قوي البنية .

مقتول الساعدين .

لأسيما ان المسدس المصنوب الى رأسي كانت يزيده قوة
ويزيدني ضعفاً .

وهمس عادل في اذني : إذا تقومت بحرف صرعتك فوراً
إياك ان تستنجدي بأحد .

وأيقنت انه سينفذ تهديده .

وحياتي لن تكلفه عناء ولا تعباً .

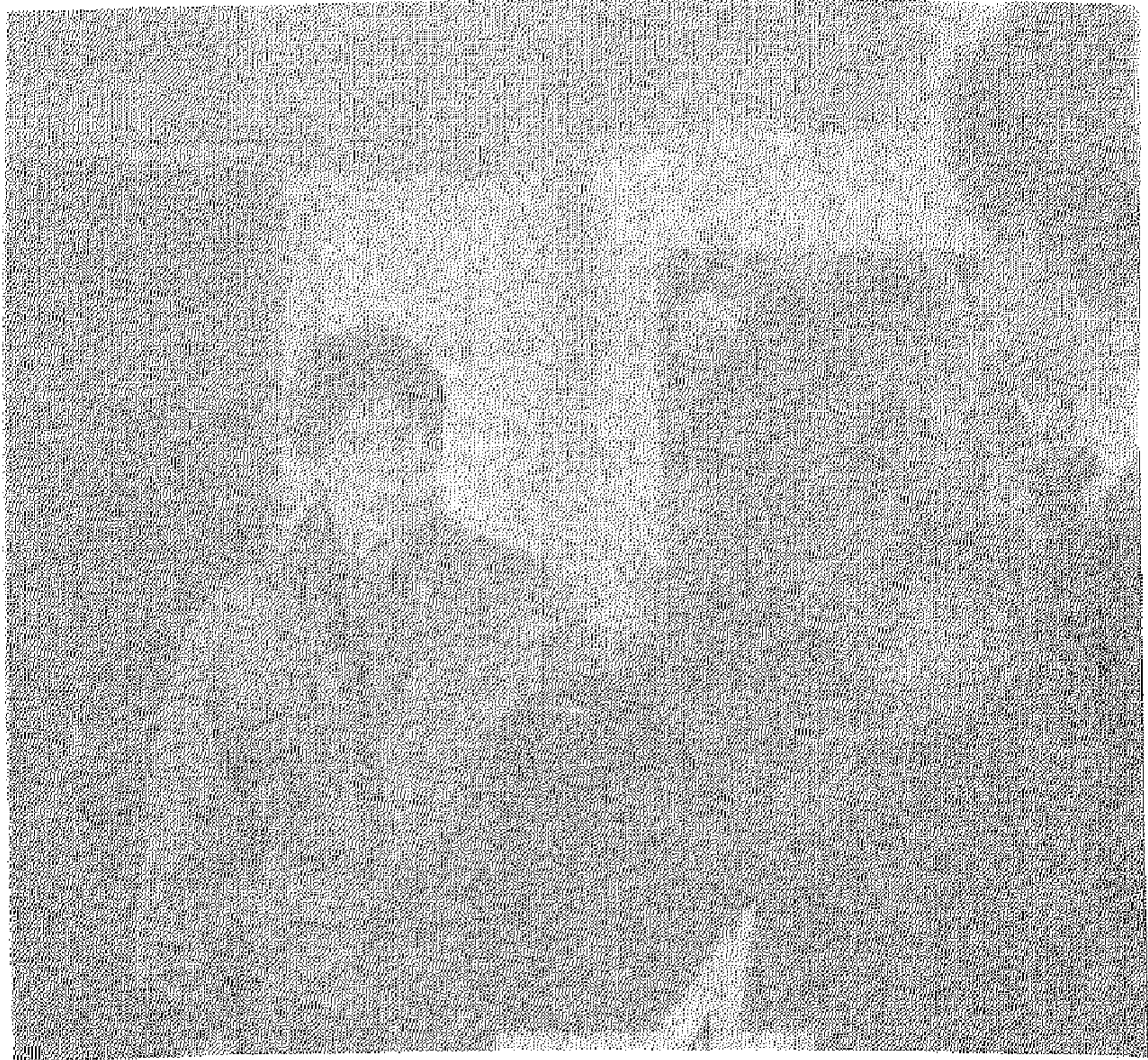
إذا ضغط على الزناد ، استقرت الرصاصة في نخاعي وقضي
الأمر .

وللمرة الاولى في حياتي عرفت الخوف ، وقد شاهدت
الموت بعيني .

ورحمت أفكر بحيلة تنقذني منه .

إلا انني لم اوفتني ،

وكان عليّ ان أسرع في التفكير ، وفي اتخاذ القرار الحاسم ،
الذي يكفل لي النجاة من الموت .
لأن تأخيري في رد الجواب على عادل البسام كان يعرّض
حياتي للخطر .



وفيا أنا أفكر .
وفيا عادل يحاول إطلاق الرصاص عليّ ، فتسح باب الغرفة
نجاة .

وأطل منه عشيتي خالد ..
فقد قلت خاطر خالد عليّ بعد ان طسال مكوثي في الغرفة
مع عادل .
ولعل الغيرة العمياء هي التي دفعته الى اقتحام باب الغرفة
على تلك الصورة .. فكان ان أنقذ حياتي .
ووثب خالد الى عادل كالثورة الجامعة .
وضربه بعصا على زنده فسقط المسدس من يده .
وارتد عادل على ذعر ، وقد فوجيء بوثبة خالد .
لا سيما ان المسدس سقط من يده .
وتراجع الى الوراء مستنداً ظهره الى الحائط .
ثم تناول المصباح ، والمهدد عهد مصابيح الزيت في الجبال
النائية البعيدة ، وحاول ان يقذف به خالداً .
وأدرك خالد نيته فهجم عليه يضربه بالعصا يحنون .
حيناً على رأسه .
وأحياناً على يديه .
وقارة على ظهره .
وطوراً في صدره ورجليه .
ولم يقف عادل البسام وقفة المتفرج .
بل راح يرفس خالداً برجليه ويكيل له اللكمات بيديه .
وتبين ان المقتش ملاكم بارع ، وانه قوي الى أبعد حدود
القوة .

وأدرك خالد أي خصم عنيد هو خصمه .
فالتفت اليّ ، وكأنه يدعوني للاشتراك في المعركة .
وخالد لا يجهل أي قوة هي قوتي ، وأي حيلة هي حيلتي .
ومواقفي في المكائد والحيل والجرأة والقوة تشهد لي .
وكثيراً ما خضت معارك دامية مع أفراد العصابة فكنت
أنتهي منها سليمة من كل جرح ، في حين يخرج جميع أفراد
العصابة مصابين بجراح ثخينة وكسور عديدة .

واسرعت إلى نجدة عشيقتي .
وأمسكت بمقعد رفعته وانهلت به على رأس رجل الأمن .
فوقع في الأرض فاقد الرشد .
ووقف خالد ، وهو يلهث من التعب والدماء تنزف من
جراحه التي أصابه بها المقتش .
ووقفت أنا بعيدة .
وتقدم خالد مني يقول :
- ماذا ننتظر ؟ هل ننتظر ان يستفيق ليعود الى
مهاجتنا ؟

قلت :

- يجب أن نتدبر أمره .

واسرعت بالخروج الى البهو الكبير .

ثم دلفت الى القبو ، أدعو أفراد العصابة : ناصر ، وعاطف

وكميل ، وأسعد ، ومنتصور . . .

وأمرع اللصوص كلهم ، وهم مدججوت بالسلاح ، فهم يعلمون انني لا أدعوم إلا في المحن الشديدة .

وقدتهم الى غرفتي ، حيث كان خالد منصرفاً الى تكييل وتقييد عادل بالحبال .

وأمرتهم بنقل عادل إلى القبو الأسفل ، إلى حيث يقيم جميع ضحايانا ، مفتش الامن السابق ، وشيخ قصر الجماجم ، والمرأة الثرية التي كانت تعيش وحدها واختطفناها وسلبنا أموالها . وذلك الشاب الذي ورث مبالغ طائلة عن أبيه ، وذلك الموظف الكبير المتقاعد الذي سجناء في القبو وكنت أدعي أنني زوجته فأقبض مرتبه وأنفقه على العصابة .

وكانت طريقة عصابتنا في الوصول الى المال مبتكرة .
لم نكن نقتل .

ولم نكن نسرق الاموال .

بل كنا نعد الى الحيلة ، فنحن نبعث عن الأغنياء الذين لا وراثه لهم فنخطفهم ونعذبهم ونرغمهم على تسجيل أموالهم لنا .
او نرغم الغني على الزواج مني زواجاً صورياً فتنتقل تلك الاموال اليّ .

او نرغمه على تسليمنا أمواله بيده تحت الضغط والتهديد والارهاب .

ويوم اختطفنا كهل قصر الجماجم - عم بهاء - لم نكن نعلم
ان له وريثاً ، وان هناك ابن أخيه بهاء العواد .

ولو اننا علمنا ذلك ، لما أقدمنا على ما أقدمنا عليه .

وعندما علمنا ان الوريث الوحيد للكهل هو بهاء عمدنا الى
تخويفه بشائعات الارواح ، وأوقفنا خالداً الى القصر للقيام بدور
المارد الاسود الجبار...

وحمل اللصوص عادلاً ، المقيد اليدين والرجلين الى القبو .

وفيما هم يخرجون به قال خالد لهم : اليّ بشيخ قصر الجماجم
انني اريد ان اتفاهم معه .

وذهبوا ..

وبعد قليل عاد منصور يقود أمامه شيخاً أبيض الشعر ،
رث الثياب ، محدودب الظهر ، هزيلاً .

وكان يبكي ويسترحم ويستعطف .

لقد كان منظره يثير الشفقة والرحمة والامى .

وتقدم ذلك الشيخ المسكين مني وركع أمامي وبكى ،
وتتم : رحماكم لا تقتلونني ، لا تذبجونني ، اتركوني ، دعوني أرجع
إلى قصري فأموت هناك مرثحاً من عذاب الحياة .

ولم أجب بحرف .

إلا ان خالداً تقدم منه يرفسه برجله فتدحرج على الأرض
وأجهش بالبكاء .

وأمسك خالد بشعر الشيخ الأبيض يرفعه عن الأرض وهو
يضحك .

وراح الشيخ المسكين يبكي بدموع تفتت الأكباد .
وتتم : رحاكم ، رحاكم ، رحاكم .
وعاد خالد إلى لطمه بقساوة .

وتوجه الشيخ نحوي يقول وهو يمسخ دموعه : رحاك يا
سيدتي إنقذيني من هذا العذاب ، ارحمني .
وضحكت منه .

لم أكن أشعر بالحنان ، ولا بالعطف ، ولا بالحنين .
كان قلبي متحجراً .

لم أكن أستطيع أن أذرف دموعاً واحدة .
ولم أشعر يوماً بلذة الدمع العميقة القرار .

ووقف الشيخ يبكي ويولول : رحاكم رحاكم ، ارحموني
برحمتك الله .

وعدنا إلى الضحك .

كان منظر الشيخ عندنا يثير الضحك .

أما عند أي إنسان آخر ، فقد كانت ذلك المنظر الرهيب
يثير الأسى والدموع .

وقهقنا .

وقال الشيخ :

– ألا تعرفون الله ؟ ألا تخافونه ؟

وازددنا ضحكاً وتهكماً على الشيخ .

وراح خالد يرقسه فيتدحرج نحو منصور .

ليعود منصور إلى رفسه ودحرجته نحو خالد .

وكان الشيخ في حال إعياء وتعب وألم شديدة .

وكانت دموعه تنسكب غزيرة على وجنتيه .

وكان يسترحم ويستعطف ويتمتم :

– خذوا أموالي ، نصري ، ثروتي، ولكن أبقوا على حياتي ،

لا تقتلوني ، رحماكم .

وقهت .

وقلت :

– أموالك ؟ ثروتك ؟ وهل تملك قرشاً واحداً ؟ عندما

طلبنا منك تلك الأموال ثمناً لحياتك الشقية رفضت وأبيت .

قال :

– الآن ، الآن أرضي بكل ما تأمرون ، رحماكم .

قلت :

– الآن فات الآوان ، انت لا تملك شيئاً على هذه الأرض ،

لا يمكنك الآن ان تمد إلى أموالك يدأ.هي ملك ابن أخيك

الأبله ، وهي ستدقق عما قريب بين أيدينا ، انت الآن ميت .

والكل يعلم ذلك ، لقد أشيع أنك مت وأن الارواح الشريرة

جئت جثتك الى عالمها المجهول ، أنت ميت ميت ، وسيلحق بك
ابن اخيك المجنون .

وذعر الشيخ ، وتمتم :

- ماذا فعلتم ايها المجرمون ؟ وماذا ستفعلون بابن أخي ؟
أقتلونه ؟ ألا ترحمون شبابه ؟ ألا تشفقون عليه ؟ ألا يوجد في
قلوبكم ذرة من رحمة وحنان ؟
وعدنا الى الضحك ،

وقال خالد : : إذا شئت ان ينجو ابن أخيك وان تنجو
أنت فما عليك إلا ان ترشدنا إلى المكان الذي خبأت فيه
ثروتك وأموالك .

قال الشيخ : أموالي كلها في المصارف .

قال خالد : كاذب ، ان الأموال الموجودة في المصارف هي
جزء ضئيل من ثروتك الهائلة ، زيد ابن نعلم أين خبأت
أموالك ؟

فصمت الشيخ .

واستأنف خالد الكلام ليقول : أما إذا إصررت على الصمت
فنحن سنخطف أبقاسك .

وظهر الرعب في عيني الشيخ وتمتم :

- أنا لا أستطيع ان اتكلم لا أستطيع ، لن أقول لكم أين
وضعت ذهبي ؟

فقهاه خالد : إذن نتموت ا .
واقارب خالد من الشيخ فأخذ يرتجف .
لقد كان خائفاً هلعاً .
إلا أنه لم يشأ ان يشتري حياته بأمواله .
يا لهذا الحاكم الجبار الذي يسمونه ملا والذي يعبده البشر
ويتفانون في عبادته .
وهو يساوي عندهم الروح والحياة .
وأخذ الشيخ يرتجف ، ويستنجد ، ويسأرحم ، ويستعطف :-
رحمكم ، رحمكم .
وقهقنا .
انه يسألنا الرحمة .
وهل ثمة في قلوبنا ذرة من رحمة وحنان ؟
وهل يمكننا ان نعمل ونحصل على لقمة الخبز إذا فتعننا
قلوبنا للرحمة والشفقة والعطف والحنان ؟
مساكين البشر مساكين يارفيقاتي ، انهم يعدون وراء المال
والمال يهرب منهم ، ولو انهم أدركوا حقيقة الحياة لما أعاروا
المال أدنى اهتمام .
لأن آخر شيء يمكن ان يسعد الانسان هو المال .
ان ذرة من اطمئنان ، وسلام ، وعطف ، وحنان تساري
أموال العالم وذهب الأرض .

وعاد الشيخ الى التوسل ، والى الاستعطاف .
 فما كان من خالد إلا ان رفسه .
 ونظر الى اللص منصور يقول :
 - عد بهذا الشيخ المجنون الى القبو ، ليس لديّ من الوقت ما
 اضيعه في الاستماع الى بلاهته وهذيانه .
 واقترب منصور من الشيخ محاولا السير به الى القبو .
 إلا ان الشيخ تراجع الى الوراء ، وقد استأسد وحمل مقعداً
 محاولاً ان يضرب به منصوراً .
 فوقفنا نشاهد محاولة الشيخ المسكين ونحن نضحك .
 ولم يستطع الشيخ ان يرفع المقعد فتهاوى ليقع على الارض
 ويقع المقعد فوقه .
 وعدنا الى الضحك والاستهزاء .
 وتقدم منصور من الشيخ يحمله الى القبو .
 وكان منظر الشيخ المسكين يفتت الاكباد ، وهو يبكي .
 لقد كان يحبش بالبكاء ، ويولول ، ويستنجد ويسترحم .
 إلا اننا لم نستمع الى استنجاده ولم نرحم حاله .
 ولم نستجب لاسترحامه .
 وجلست وخالد نرسم الخطط ، نخطط المستقبل .
 وكنا قد بدأنا نخاف ذلك المستقبل المجهول .
 كان المستقبل يبدو أمامنا قائماً خيفاً .

لم تكن نعلم الى أين سنصل ؟
فنحن قد ارتكبنا جرائم عديدة .
وأقبية قصرنا ملامى بضحايانا .
لقد كنا أغنياء ، أغنياء جداً .
إلا ان أموالنا كلها كانت ملطخة بالدم .
لم تكن تلك الاموال تستطيع ان تحمل إلينا الراحة
والاطمئنان .

كانت كالشبح الخفيف يطاردنا أنى انجھنا وإلى أين سرنا .
وقال خالد : والآن ماذا سنعمل يارفقة ؟

قلت : علينا ان نتخلص من جميع هؤلاء الذين نسجنهم في
القبو ، ان وجودهم هنا خطر علينا . من يدري ماذا سيكون
إذا قدر لأحدهم أن يهرب من أقبيتنا سيكشف امرنا ونذهب
كلنا الى السجون ، والكثيرون منا يتخطون السجون الى
المشائق .

قال خالد : ولكن كيف نتخلص منهم وعددهم ليس ،
بالقليل

قلت : يجب ان نتخلص منهم دفعة واحدة ، نحرق
القبو بهم .

قال : وإذا قدر لأحد أن يفر من النار ؟

قلت : نفتك به بالرصاص ، سنضعهم كلهم في القبو البعيد

عن هذا القصر ، في القبو الجاثم عند آخر الحقل الواسع الاطراف
ويحيط رجالنا بالمكان ويتأهبون لأطلاق الرصاص على كل من
تسول له نفسه الهرب ، ثم نصب كمية كبيرة من البارود على
القبو ونضرم النار بهم .

قال خالد : هذه خطة لا تضمن لنا النجاة ، إذا قدر
لأحد ان يمر بالقبو المحروق ويشاهد الجثث ماذا ستكون
حالتنا ؟

فضحكت وقلت : عندئذ نرجع الى شائعة الارواح ،
الارواح انتقامت من اعدائها ، فأحرقت المكان بهم .

قال خالد الحقيقة يارفقة انني أخاف المستقبل . وجسود
عادل البسام في أقيبتنا يخيفني ، يجب ان نتخلص من هذا
الشاب اولاً ، ثم نعود الى قتل كل واحد منهم على حدة ونرمي
جثته في البئر ، هذه خطة مضمونة ، أرى ان نبدأ بقتل عادل
ثم نصرع شيخ قصر الجاهم ، ثم المرأة المعجوز ، ثم الشاب
التمرد ، الى ان نقضي على الجميع ، كل يوم نقتل بواحد منهم ،
وعندما نقضي عليهم كلهم نبرح هذه البلاد حاملين معنا أموالنا
ونضيع في بلاد الله الواسعة الأرجاء .

قلت : أنا لا أمانع في أي خطة ترسمها ، ولكن انتخلي عن
ثروة شيخ قصر الجاهم ، وهي ثروة طائلة ؟ يجب ان نصل الى
تلك الثروة ونحملها معنا الى حيث نذهب .

قال : الطمع أضر وما نفع . ما لنا ولهذه الاموال . ما
عندنا يكفيننا مدى الحياة . سنقسم اموالنا الى قسمين . قسم
نوزعه على افراد العصابة وقسم تحتفظ به ، انه لي ولك ، نحمله
معنا الى مجاهل الأخر ونعيش عيش الاغنياء السعداء .

مسكين خالد ..

لقد خيل اليه ان الاغنياء سعداء .

وهو لو علم حقيقتهم لأدرك انهم أتعس تعساء الأرض .

قلت : لا يا خالد . لن نرحل عن هذه البلاد ، إلا وقد
قبضت أيدينا على ثروة الشيخ كلها ، كلها .
قال : لقد بدأت أخاف اكتشاف امرنا .

قلت : لا تخف ، اتكل على رفقة . أنا أضمن لك النجاة بما
لي من نفوذ وسطوة .. وجمال .

قال : ولكن كيف سنصل الى ثروة الشيخ ، وهو لا
يعترف بكان القسم الأكبر منها . أما القسم الآخر فقد انتقل الى
ابن اخيه الشاب الأبله ؟

قلت : لا تخف ، اطمئن . رفقة ستصل الى هذه الثروة .

— وكيف ا؟

قلت : إسمع يا خالد ، أنا سأترجه الى قصر الجماجم ، فأغري
بهاء العواد يجاهلي وأجره ورائي بنحيط من الحب واهم
دقيق ..

فدعر خالد ، وغضب ، وتمم بجنق :

- لا ، لن تذهبي وحدك الى ذلك القصر . انا ذهبت إليه
وطفت ردهاته وأقيته وغرفته كلها . انه قصر نحيف ، ليس
لامرأة مثلك ان تحمل فيه .

وقهت بهزه ، وقلت :

- أتخاف عليّ من القصر أم من الشاب الوسيم الذي يحمل في

القصر ؟

لقد كنت أعلم يقيناً ان الغيرة تحرق قلب خالد .

فهو يغار عليّ من النسيم ، ومن النور ، والماء .

وقابعت قولي : أنا سأذهب الى قصر الجماجم يا خالد ،
وسأستولي على القصر وعلى كل ما في القصر ، وعلى ثروة الشيخ
الطائلة . بهاء العواد سيتدله في حب رفقة ، وسيهبها كل ما
وصل اليه من ثروة عمه المسكين .

فتمتم خالد : رفقة ، أنسيت يا رفقة يوم ارسلنا الى ذلك
الشاب رجال العصابة يمثلون امامه دور الارواح فقابل عملهم
بالهزة والسخرية ؟ او نسيت يوم قمت انا بتمثيل دور المارد
الاسود الجبار وكاد يكلفني هذا الدور حياتي ؟ ان هذا الشاب
يختلف كل الاختلاف عن جميع ضعاياتنا ، فهو شجاع قوي
قدير ، إني اخاف عليك منه يا رفقة .

قلت .: وماذا تريد ان تفعل به ؟

قال : أرى ان اذهب فأقضي عليه بطعنة خنجر او برصاصة
من مسدسي ونستولي على القصر وعلى كل ما في القصر .

وعدت الى الضحك بهزه لأقول :

مجنون ! ، انك تنفي بالقصر وبكل ما في القصر يا خالد ؟
وماذا يفيدنا القصر ونحن راحلون عن هذه البلاد ؟ يجب ان
تدقق ثروة الشيخ بين ايدينا . يجب ان تنتقل تلك الاموال من
يد الشاب بهاء العواد الى ايدينا وتسجل في الدوائر الرسمية .

وذعر خالد وانا اتحدث عن الدوائر الرسمية ، وقال :

- ماذا تقولين ؟ الدوائر الرسمية ؟ اتريدن ان تذهبي بنا

كلنا الى السجون ؟

وقهقت ضاحكة : الى السجون ؟ لا ، كمن آمننا يا

عزيزي . نحن في مأمن من السجون ، لن يدري بنا احد .

قال : أرى ابواب السجون بدأت تتحفز لتطبق علينا

يا رفقة .

قلت : لا تخف ، لا تخف ، أي عقل يمكنه ان يتصور ان

رفقة هي رئيسة عصابة الموت ؟ وأي مسكين ستحدثه النفس

بهاجتنا في قصرنا المنيع ؟ لا تخف ، لا تخف ، أنت تعلم اي

مركز تحتله عشيقتك رفقة في قلوب العظام . الكل يحبني

والكل يتمنى بسمي من شفتي ونظرة من عيني وكلمة عطف

اجود بها عليه ، لا تخف ، لا تخف .

قال : رفقة ! ليس مسيرك بالمسير المعتدل . هذا المسير لا يروقني ، ستتهورين وتهوريتنا معك . لن أسمح لك بالذهاب الى قصر الجهاجم حيث يقيم الشاب الشاعر .

قلت وانا ابتسم :

— يا لك من عاشق غيور .

فقاطعني قائلاً : اني لغيور ، لقد بدأت الغيرة تلتهم فؤادي فعذار حذار من خالد يارفقة .

قلت بغضب : خالد ! . أنت تهدد ؟

قال وقد بدأ الغضب يهزه هزاً : أجل أنا أهدد . أهدد وأستعد لتنفيذ تهديدي . أيلوح لك ان خالداً هين الجانب ؟ لا وحق السماء أنا لست ممن يصعب عليهم الانتقام .

وظهر الغضب جلياً في عينيه .

وكان مخيفاً في غضبه ، وصرخ :

— رفقة ؟

والتفت اليه لأقول بغضب يمازجه الهزء والسخرية :

— قل ما بك .

وأطلق خالد قهقهة مرعبة .

واقترب مني ، وغرز نظره في عيني فلسع الغضب الشديد في

نظره ، وتمتم :

— أنا خالد يارفقة .

قلت بهزء ؛

- وإذا كنت خالداً ، أتخيفني ؟

وأدرت له ظهري ، وهممت بالمسير .

إلا انه لحق بي وأمسك بكنتفي من الورااء يهزني بغضب

وحنق ، قائلاً .

- رفقة ا . أنت تحت رحمتي وسلطتي ، كلمة واحدة من

فمي كافية لثورة رجالنا عليك وتمزيق جسدك البض الجميل ..

اعمالك المشينة لم تعد ترضينا . كلنا نأقمن عليك . انا وناصر

وحامد وسعيد ومنصور . كلنا نريد التخلص منك ومن حماقتك

وسخافتك وغطرستك وكبريائك ، لن نسكت عنك بعد

الآن ، ولن نسمع لك كلمة ، الموت لك يا رفقة .

وكان تهديده قاسياً رهيباً .

كانت الكلمات تخرج من فمه كالرصاص .

وكان يهزني بغضب .

إلا انني حاولت الظهور بمظهر المرأة الجريئة فأجبتة :

- تهديدك هذا لا يخيفني ، رجال العصابة كلهم يجانبني .

انهم يحبونني ويحترمونني ويأتمرون بأوامري . سيفتكون بك

عند اول إشارة مني .

وعاد الى التهديد .

ورفع يده محاولاً لطمي وقال :

— سأسحقك سحقاً يا شقية .

وأمسكت بيده أشدها .

وقلت : أخرج من قصري يا نذل . أي سلطنة لك عليّ ؟
أخرج . أخرج .

وأمسك بيدي يشدها قائلاً :

— رفقة ! . أنا صاحب الفضل الاول والاخير عليك . انا
الذي جعل منك امرأة غنية يا رفقة .

قلت : أجل ، لقد جعلتني غنية ولكنك جعلتني مجرمة .
قال ضاحكاً :

— وهل كنت قبل ان تتعرفي إلى تلك المرأة التقية الورعة
المصونة ؟ انا اعرف من انتِ ، أنسيت يوم رفعتك من الاوحال؟
أنسيت يوم عثرت عليك في ثيابك الرثة وشعرك المشعث وقدميك
الحافيتين تلتقطسين النفايات وتفتشين عن ثمرة فاسدة او طعام
ملقى للكلاب ؟

وصرخت في وجهه :

— اسكت . اسكت .

إلا انه لم يسكت .

بل مضى يصبح بفضب : انسيت يوم كنت كاهرة القلرة
تتمرغين في الاوحال ؟ هل نسيت يوم استنجدت بي ؟ يوم
طلبت مني رغيماً تسدين به الرمق ؟ يوم لحقت بي كالجنونة

وقد وقعت في غرامى؟ ويوم قادتك الى المغارة ، مغارة عصابتنا
في اعالي الجبال فأويتك واطعمتك واطلقتك غليلك ؟ انسىت
يوم وقعت في رجالي ادعوهم لأن ياتمروا بأمرى وقلت لهم :
« هذه هي رئيسكم منذ اليوم » انسىت كل ذلك يا مجرمة ؟
قلت بحنق شديد :

لقد اخذت ثمتاً لما أديت لي من خدمات فهاذا تريد بعد ؟
قال وقد لمع الشر في عينيه وعاد الى الاقتراب منى
بوحشية :

أريدك . اريدك انت . أتسمعين ؟ انت ملك لخالد .
ليس لمسين ان تنظر إليك إلا عيني ، ولا لسان ان يهمنى في
اذنك كلمة إلا لسانى ولا اليد أن تطوق جيدك إلا يدي ، ولا
لشفة ان تطبع على خديك قبلة إلا شفتي .

فرمقته بنظرة هزه وسخرية . وحاولت الابتعاد عنه

إلا ان خالداً شدني اليه وصرخ : انت لي ، لي أنا أتفهمين ؟
وصرخت به :

— كذبت ايها الشرير . لقد كنت لك في زمن مضى ، أما
الآن فأنت في وادى وأنا في وادى . لن اكون لك بعبد اليوم يا
سافل .

وزأر :

— انت لي في كل زمان ومكان ، لن تكوني لأحد غيري

يا فاجرة . في الدقيقة التي تفكرين بأن تكوني لرجل غيري
سيطبق الموت عينيك . ان خنجري ما زال مصقولاً ، ويدي
مستعدة للخندق ، ومسدسي شديد الظمأ لنفث اللهب .

وشد على يدي فخييل الي ان عظام معصي تحطمت تحت
يده . وشدت بيدي أسحبها من يده ، وأرفعها لتنهال على وجهه
بصفة قوية .

و كنت قد تعبت .

ووهنت قواي فسقطت على مقعد وثير ألث من التعب .

وهب خالد كالمجنون ، وقد استبد الغضب به وزأر :

اتصفينني يا شقية ؟ . أتبلغ بك الحماقة الى هذه الدرجة من
التهور . والله لأدفعن بك الى القبر . لقد حكمت عليك بالموت ،
وأنت تعلمين قيمة الحكم الذي يصدره خالد .

وكان على ثورة جامحة .

كان منظره مخيفاً .

فقد اندفع الغضب في عينيه وفي كلماته وفي كل حركة من
حركاته المثيرة أمامي .

وأيقنت انني هالكة لا محالة .

انا اعلم ان غضب هذا الرجل لا يتوقف عند حد .

عندما يثور يصبح كالثور الهائج ، تلتهم ثورته المندلعة كل
من وما يقع في طريقه .

فهو لا يتورع عن الفتك بمن يعترض سبيله ساعة انقضب .
والذين ذهب بهم غضب خالد إلى القبور كثيرون .
ولذلك فقد كان جميع أفراد العصابة يخشون غضبه ويتقون
شره .

وكان عليّ ان أحول دون وصوله اليّ .
من المؤكد انه لن يتورع عن قتلي إذا وصل اليّ .
وعمدت الى الهرب .

وتراجعت الى الوراة نحو الباب محاولة الخروج من الغرفة .
إلا ان خالداً أدرك ما يجول بخاطري فوثب إلى الباب يقفله
ويسند ظهره اليه وينظر اليّ نظرات مرعبة مخيفة تدل على
مدى غضبه الشديد ، وعلى رغبته الملحاح في التخلص مني .

وأيقنت انني هالكة .

خالد لن يعفو عني .

ليس لي إلا ان أجابه القوة بالقوة .

إذا وهنت قواي .

وإذا ترددت في الدفاع عن نفسي سأموت .

ورحمت أبحث عن شيء أريد به ضرباته .

ورأيت ان ابادره الهجوم قبل مبادرته .

فأسرعت الى مقعد كبير أرفعه بين يدي وأقذفه به .

ونخيل إلي ان المقعد سيحطم رأسه .

إلا ان خالداً كان خبيراً في مثل هذه المعارك ، فألقى بنفسه
على الأرض وتمر المقعد فوق جسده دون ان يمسه .
واشدد به الغضب وقد هاجته .
وأيقنت انه سيفتك بي إذا لم أقتك به .
أحدنا سيموت ، حتماً . إما أنا ، او هو .
وبدأ الخوف يشعذ همي ويرسل القوة في جسدي .
فأسرعت الى آنية من زجاج معدة للزهور أرفعها بيدي
وأقذف بها خالداً .
وأيقنت ان الزهرية ستعطم رأسه وتريحني منه .
إلا ان يقيني تحول إلى شك .
والشك تبخر كالأحلام وقد رأيت يتناول الآنية الزجاجية
بيده ويقبفه .
وأشدد بي الخوف .
وأيقنت ان خالداً سيقذفني بالآنية .
أيقنت ان حياتي انتهت .
خالداً لا يخطئ ، الهدف .
الويل لي ، الويل لي .
ولم يدع خالداً الفرصة تفوته فأسرع الى قذف الآنية .
وكان هدفه رأسي إلا انني تمكنت من اتقاء الآنية .
وتراجعت إلى الوراء أخشياً وراء مقعد كبير .

وتقدم خالد مني ببطء .

وقد أيقن انني أصبحت تحت رحمته .

ووقف يقول :

أمتخبئين ؟. أين قوتك وبعطشك وتهديدك يا رئيسة عصاة

الموت .

واستفزني .

وزادني استفزازاً ، وقد وقف يشعل سيكارة بكل هدوء .

فكانه يهزأ بي .

وعدت أبحث عن شيء أرميه به .

ولاح لي المسدس .

مسدس عادل البسام الذي شهروه وحاول إطلاق الرصاص

عليّ قبل دخول خالد .

وكان المسدس ملقى على الارض ، فوثبت اليه التقطه وأصوبه

الى خالد .

وكان هو قد أشعل اللقافة وراح يمجها على مهل .

وشاهد فوهة المسدس مصوبة إلى صدره فخاف .

إلا انه اعتصم بالجرأة .

ووقف .

لم يهرب .

ولم يستنجد .

ولم يشرحهم ،
كان كالطود يقف في مهيب العاصفة .
ويبدو ترتجف ضغطت على زناد المسدس فانطلقت الرصاصة .
وارتجفت وقد انطلقت الرصاصة من المسدس .
وازداد ارتجافي عندما شاهدت لفافة التبغ تسقط من بين
شفتيه الى الارض .
ثم هوي خالد قريبا .
وتأكدت من انني أصبته .
تري أنكون إصابته قاتلة ؟
اذا مات خالد فرجال العصابة سيثورون علي ، وهم الذين
يكتنون له كل محبة وتقدير .
وشعرت بالوهن .
لقد شعرت انني أكاد اسقط الى الارض .
وسقط المسدس من يدي .
وإذا بخالد يرفع رأسه .
وينظر إليّ نظرات هزء وغضب .
ونفض .
نفض واقفاً وأخذ يقهقه .
وعندئذ . .
عندئذ فقط تأكدت من انني اخطأته وان الرصاصة لم

تصبه .

لقد ادركت انني اخطأت الهدف .

وازداد خوفي ، وقد رأيت خالداً يهجم عليّ فاتمناً بكفيه
محاولاً خنقي .

وتراجعت الى الوراء ، وقد أيقنت انه لن يعفو عني .

انه جبار مخيف .

لا يعرف الرحمة .

ولا يتعرف الى الشفقة .

الويل لي ، الويل لي .

وكانت خالد يدنو مني ببطء ، وانا اترجع الى الوراء .

وفيما اعود الى الوراء وانا انظر الى خالد عثرت رجلي بالمقعد

فهويت الى الارض .

واقترب خالد مني ليحتم عليّ صدري .

ويطبق بيديه الفولاذيتين عليّ عنقي .

وأدركت ان ساعتي الاخيرة قد دقت .

سيختنقني ويخلص مني .

وفي تلك الدقيقة جنحت بأفكاري الى الله .

ان الانسان لا يخاف الموت .

انه يخاف المثل أمام رب الموت والحياة .

لا سيما إذا كان الانسان مجرمًا ثقيل الضمير ، مخضب اليدين

بالاثم والحطية .

عندئذ فقط ، ساعة الموت ، يشعر الانسان « بالثقل »
يجذبه الى الجحيم إذا كان شريراً ، او « بالحقنة » ورفعه الى فوق ،
الى السماء إذا كان طاهراً .

والضمير وحده ميزان اعمال الانسان ساعة الموت ، أما
بعد الانطلاق ، فالكلمة فيه الى الخالق الاوحد .

وانا شعرت تلك الساعة بأثني انجذب الى تحت .

الى أسفل الدرجات .

وشعرت بأثني ثقبلة جداً .

شعرت بأن الارض تشد بي الى التراب .

لقد رأيت جرائمى كلها أمامي تلك الساعة .

رأيت الجثث التي فتكت عصابتي بأصحابها .

ورأيت الاموال التي سرقناها من صناديق الاغنياء .

ورأيت طيشي ومكري وخداعي .

رأيت كل خطاياي تحيط بي وقدفعني الى الجحيم .

وحاولت الصراخ .

حاولت الاستنجاد .

فلم أستطع .

لقد اختنقت الكلمات على شفتي .

وبدا خالد يشد على عنقي وهو يزار : يا مجرمة ، يا مجرمة .

وبذلت الجهد الاخير للنطق بكلمة واحدة قبل رحيلي عن

هذه الأرض .

واستطعت بعد جهد كبير ان اتمم :

- خالد ! .. حبيبي .

وشعرت بأن أصابع خالد المثبتة بدأت تنفرج عن عنقي ،

وقد وقعت كلمة « حبيبي » في اذنيه .

توى هل لمست هذه الكلمة قلب عشيتي ؟

وتراجع خالد عني .

ورقف . ورفعني بين يديه هامساً :

- « حبيبي ، حبيبي » .

لقد كان يردد الكلمة التي تلفظت بها وهو في حال نفسية

مؤثرة .

حتى اللصوص المجرمون يدخل الحب الى قلوبهم ، فيحركها

وتعبت أصابعه السحرية بأوقارها .

وأدركت ان كلمة « حبيبي » تركت في نفس خالد الأثر

البعيد .

وكنت على يقين من ان خالداً يحبني

انه ليضحني بكل ما يملك في سبيلي .

فلماذا لا أعمد الى إثارة هواه للتأثير على عقله ؟

وطوقني بذراعيه .

وقبلته...

وتظاهرت بالعياء وبالآلم .
فما كان منه إلا ان راح يعمل على إسعافى بالمنعشات وبالتدليك
وقد ظهر القلق على وجهه .
وتتم : رفقة ، حبيبتى رفقة ا
فتظاهرت بالاغماء .
ولم أجب .
وازداد خوفاً عليّ .

وراح يغمرنى بالقبل وبالمسعات وينادينى بأرق وألطف
الكلمات : رفقة ا .. رفقة ، حبيبتى . ما بك يا حياة خالد ،
ما بك ؟

وفتحت عينيّ ، وقد ادركت ان ما قمت به أصبح كافياً
لضمان حياتي .

ونظرت الى عينيه .

وأجهشت بالبكاء .

ان السلاح الوحيد الذي تملكه المرأة في كل آن وكل مكان
والذي تستطيع بواسطته ان تحصل على ما تريد من الرجل
هو البكاء .

وانتضيت سلاحى ، سلاح المرأة ، في وجه خالد فبكيت ..
لقد بكيت بكاء مرأ .

وكانت دموعى تنسكب غزيرة على خديّ .

لقد كانت عيناى تبكيان .

أما روجى فكانت تضحك .

كنت أضحك فى مري ، لتجأتى من الموت ولا تخداع خالد

بدموعى .

وضميتى خالد الى صدره .

وراح يمسح دموعى بمنديله .

وأجلسنى على مقعد وثير .

وجلس قربي ينظر الى برفق ويواسينى ، ويكفكف دموعى .

ومست فى اذنه :

— خالد .. على ماذا أقدمت يا خالد ؟ أمكذا تهون لديك

حببتك رفقة يا خالد ؟ أنسيت حبنا العظيم يا حبيبى أنسيت ؟

قال :

— كدت أنسى يا رفقة . لقد خرجت بي عن رصاتي

وعقلي . ما أقدمت عليه أثار جنونى . أتطلقين الرصاص على

خالد يا حبيبتي ؟ ما عساك فاعلة ، وقد مات خالد برصاصك

الاثم يا رفقة ؟ أمكذا يذهب الغضب بعقلك يا حبيبتي ؟

وألقيت رأسي على صدره . وقلت :

— خالد . الغضب جنون . والغضب جنون لا يعلم ما

يقول ولا ما يفعل . ساحننى . ساحننى يا خالد .

قال خالد :

أنا أحبك يا رفقة ، أحبك حباً هائلاً عظيماً ، ولولا هذا
الحب لكنت الآن في العالم الآخر . حيي الشديد لك يدقني الى
الغيرة العمياء القاتلة .

فابتسمت له ، وقلت .

- كن آمناً يا خالد ، كن آمناً يا حبيبي . انا لك مخلصه
وفيه ، لن أخون حبك لن أخون !
وأخرج خالد من علبة التبغ لفافتين أشعل احدهما لنفسه
وأشعل لي الثانية .

والتفت اليّ يقول مازحاً :

- لقد اطلقت الرصاص عليّ بعد أمتار قليلة إلا أنك
أخطأت الهدف . أنت لست بالتلميذة الماهرة التي تحسن إطلاق
الرصاص . إنك ما زلت بحاجة الى دروس كثيرة يا رفقة . قد
تحتاجين يوماً الى إطلاق الرصاص على أحد ، ومن يدري ، قد
تعودين إلى إطلاق الرصاص عليّ يوماً . لذلك فأنا ساعمد الى
تعليمك مهنة القتل بالرصاص .

وابتسمت وقلت :

- لا ، أنا لست بحاجة الى هذه المهنة المشرفة ، ما لديّ من
المهن يكفيني ويزيد .

واستوى خالد في مقعده ليقول :

- والان ، علي ماذا عولت يا رفقة ؟ ما هي الخطة التي يجب

تتفيذها الآن ؟

ونفشت دخان اللقافة لأقول :

- إسمع يا خالد . انا سأذهب الى قصر الجماجم . سأمطتي
جواداً وأتوجه الى القصر ، وهناك أمام القصر ائتظاهر بأنتي
سقطت عن الجواد . وأستنجد وأبكي وأولول وأفقد رشدي .
وأئتظاهر بالانحاء . وبأتي الدين في القصر لنجدتي فيحملوني ويدخلون
بي الى القصر . وهناك داخل القصر أستفيق . وأنظر حولي
لأعتم : « أين أنا ؟ . ان رأسي يؤلمني ، صدري .. يدي ..
رجلي . لقد كنت أقتزه فكبا الجواد بي وسقطت ، أعيديوني الى
قريتي ، أعيديوني الى بيتي . »

ويحيبونني : خففي عنك ابنتها السيدة ، أنت في مأمن .
وهكذا أخطو الخطوة الاولى وأحتل القصر على الرحب
والسعة .

قال :

- يا لك من داهية يا رفقة .. وبعدهذا ؟

قلت :

- وبعدهذا أخطو الخطوة الثانية ، فأئتظاهر بأنتي احب بهاء
العواد الشاعر المجنون . وأحملة على حيي . كل ما أملك من وسائل
المكر والخذاع والاغراء سيكون سلاحي للأستيلاء على قلب
بهاء . وقلبه سيكون طريقه الى عقله .

قال خالد :

– والخطوة الثالثة ما هي ؟

قلت :

– هناك خطوات عديدة . الخطوة الثالثة ستكون فراري من قصر وادي الجماجم والعودة إليك .. والخطوة الرابعة ستكون اللحاق بي . بهاء سيلحق بي الى هنا وقد تيمه هواي . سيقع في الشرك . وهنا نتدبر امره . لن أرضى بالزواج منه ، إلا وقد سجل لي كل ما يملك . وعندما تصبح الاموال والحقول والبساتين والكروم والقصر لنا سنبيعها ونضم ثمنها إلى أموالنا ونهرب من لبنان إلى المهجر القاصي البعيد .

قال خالد بعد تفكير : أنا أخاف يا رفقة . أخاف أن تقمي أنتِ في الشرك فتعبين بهاء العواد وتلحقين به .
وقهقت : أنا ؟ . يا مجنون . هل يمكن هذا ؟ .

قال . كل شيء ممكن يا رفقة .

قلت : دع المزاح الآن . ليست رفقة بالمرأة السريعة الانقياد .
أنا رفقة يا خالد . ألا تثق برفقة ؟

قال :

– انني لأثق بك الثقة العمياء يا حبيبتي ، إلا ان الغيرة تعمي بصري وبصيرتي . حبي إياك يدفعني الى الغيرة ، والغيرة تدفعني الى الظنون ، والظنون تدفعني إلى ارتكاب الجرائم في سبيلك ، وفي سبيل هواك العميق القرار .

قلت : الحب الذي يضطرم في قلبك ، هو نفسه يضطرم في

قلبي يا خالد . والنار المتأججة في فؤادك هي هي النار المتأججة
في فؤادي . مهلاً يا حبيبي مهلاً ، بعد أيام قليلة تنهي مهمتنا
فتمتقل اموال شيخ قصر الجماجم الينا ونطير بها وبأموالنا الى
الغرب حيث نعيش عيشاً هائلاً هائلاً مطمئناً .



وبدأت عقارب الساعة تشير الى التعاقب عند منتصف الليل ،
والراهبة رفقة تروي سرها لرفيقاتها الراهبات .
وبدأ النعاس يدب الى أجفانهم . .

فتمتت : هيا بنا يا رفيقاتي الى النوم . الليلة التالية سأتابع
لكن قصتي .

قالت الراهبة شمونة : ولكن هل ذهبت إلى قصر وادي
الجماجم . وهل تعرفت الى بهاء العواد الشاعر المجنون ؟ . .
فأغمضت الراهبة عينيها كأنها تستعيد ذكرياتها الهائلة
الآفة . وبدأت الدموع تنهمر على خديها من جفنيها المطبقين .

الفصل الرابع

وفي الليلة التالية التفت الراهبات حول الراهبة رفقة طالبات اليها متابعة قصتها وإفشاء السر الدفين الجائئ في صدرها على أم وحنين .

وجلست رفقة الراهبة تتابع قصتها الدامية ، وصورة الشاب لا تنسلخ عن يدها
لقد كانت تمن النظر فيها من حين الى آخر والدمعة عالقة بأهدابها .

واستوت الراهبة المشرفة على الكهولة في جلستها حول الموقد لتكمل لرفيقاتها ما بدأت به القصة المخضبة بالدمع وبالدم فقالت :

« يا رفيقاتي العزيزات . الانسان لا يعلم الى اين يسير ولا الى اين سيصل .

قد يسير الى القمة ليجد نفسه في الوادي السحيق .

وقد يتنصص الى الوادي ليجد نفسه على القمة العالية الذروة ،
البالغة الارتفاع .

وقد جهوي الى الشر ويجد الخير في طريقه .
وقد يكون الخير مأربه فيرتمي بين أحضان الشرور
والرذيلة .

لا نعلم اي طريق هي طريقنا .

ولا عند أي منعطف يكون الانقلاب في حياتنا ومصيرنا .
الله وحده يعلم ذلك .

وأنا ، الراهبة رفقة ، يوم سرت الى قصر الجماجم كان
هدفي الشر .

ولكنني استفتت لأجد نفسي بين أحضان الخير الرائع الحسن
البيهي الجمال .

وامتطيت صهوة جواد أصيل في صباح يوم مبكر حلو
النسمات .

وتوجهت الى قصر وادي الجماجم ، الى الشاعر بهاء العواد ،
وأنا لا اعلم أي مصير ينتظرني هناك .

لقد كنت عازمة على إيقاع الشاب في غرامي ثم أتوارى عنه
فيلحق بي إلى قصري .

وهناك ، إما ان تفتك به وإما ان نسلبه أمواله كلها ونطير
الى اوروبا .

ووصلت أمام القصر .
فترجلت عن الجواد .
واستلقيت فوق صخر نائي .
وجرحت يدي ، وصدري .
وحدثت جيدي بأظفري .
واخذت أولول وأبكي واستنجد :
- الي ، الي ، رحماك الي الي .
وإذا بباب القصر يفتح فجأة .
ويخرج منه بديع بثياب النوم .
وهرول مسرعاً الي .

وراح ينادي :

- بهاء ! .. بهاء ! .. بهاء !
وكنت قد تظاهرت بالاغماء .

فأسرع بهاء العواد يساعده صديقه بديعاً في رمي عن الصخر
والدخول بي الي القصر .

وهذا ما كنت أريده وأرجوه .

ومضيت في إغمائي الوهمي .

وألقياني فوق سرير وثير .

وراح بهاء العواد يعمل علي إسعافي بالضمشات وبالمياه
وبالكحول .

أما بديع فقد جلس بعيداً ينظر إليّ وهو يبكي ويتمتم :
مسكينة كم هي جميلة أراها ستموت . يا للحسن البهي
يدوي في التراب ويدبل .
وكنت قد تظاهرت بالاغماء فأسرع بديع النادر يساعد
صديقه بهاء .

وبدأت أخشى ان يفتضح أمري ، إلا انني مضيت في

الحزائي المزرف

وبعد وقت وطويل استنقت من الاغماء .

والتفت حولي على دهشة مزيفة لأتمتم : أين أنا ؟

ولامست يد بهاء العواد جبينني .

وابتسم لي وتمتم : لا تخافي ايها الحسناء أنت في مأمن .

أنت في قصر الجماجم بعيدة عن كل خطر .

وتظاهرت بالرعب والخوف : قصر الجماجم ؟

ففق بهديع وقال :

- أتخافين ؟ مسكينة . لماذا لا تكونين لكِ جرأة بديع ؟

منذ شهر وأنا أقيم هنا في هذا القصر عرضة لفتك الارواح

الشريرة وشرم دون ان يلامس قلبي الخوف . أنا بديع . أنا لا

أعرف الخوف ابداً ... لا تخافي ، سأحميك بقوتي وبطشي

وبأسي .

وكان منظره مضحكاً .

لقد كان الخوف ظاهراً في عينيه ، وهو يتحدث عن الأرواح
الشريرة .

أما بهاء فقد انصرف الى تضييد جراحي .
وكان جيلاً هادئاً رصيناً .

كان ذلك الوجه طافحاً بالسناء .
مغموراً بالنور .

ولم ينبس بهاء بحرف
بل مضى في صمته العميق .

ولم ينظر الى وجهي .
كأنه لا يحفل بالحسن والبهاء المائل امام عينيه .
وعندما أنهى تضييد جراحي دعاني الى النوم .
قال :

– يجب ان تنامي وتستريح ريثما تستعيد من قواك ايتها
الحسنة .

وشكرته .

وتعددت في السرير ، ورحت أفكر :

تري هل أتمكن من الاستيلاء على قلب هذا الشاب الجميل
الوديع ؟

وإذا استوليت على قلبه ، هل أستطيع ان استولي على
ثروته الطائلة ، على الذهب والمال والأملك والقصر ؟

لقد كان كل مناي الاستيلاء على الثروة والعودة الى خالد ،
والسفر الى اوربا .

ورحلت أرسم الخطة ، وأنا مستلقية على السرير .
ولم استظع ان احدد تلك الخطة .
فتركت للاقدار تحديدها .

إلا انني عزممت على بدء طرح الشباك في طريق بهاء العواد ،
ونمت :

لقد استفرقت في نوم عميق لأشاهد حلماً مرعباً .
لقد رأيتني استعم في بركة من الدم . وأنا أبكي .
لقد كانت الدموع تنهمر من عيني كالسيل الجارف .
لم تكن دموعاً بيضاء بل كان لونها شديد السواد .
وإذا بأفمي هائلة تلتف حول عنقي وترشف دموعي .
وأحسست وأنا في الحلم بأنقاصي تضيق . لقد كانت الأفمي
الهائلة تشد على عنقي محاولة القضاء عليّ .
وإذا بجهامة بيضاء تهبط على الأفمي ، وتجم على رأسها وتفقأ
عينها بمنقارها الصغير .
وإذا بالأفمي تترك عنقي وتنساب الى بركة الدم لتختفي
فيها ..

وعندئذ رأيت دمائي دموعاً .

رأيتها بيضاء صافية كوجه السماء .

ومدوت يدي محاولة إمساك الحمامة البيضاء إلا ان الحمامة
طارت . ثم هوت في بركة الدم .

قرأيت زيشها الأبيض الناعم تصبغه الدماء القانية .
واستفقت مذعورة .

واستويت في سريري أفكر .

ما معنى هذا الحلم المرعب ؟
ولم استطع ان أجده له حلاً صريحاً .

إلا انني أدركت انني في خطر وان «حمامة» بيضاء
ستتقذني بما أنا فيه .

هذا كل ما لاح لي من الحلم الغامض المجهول .
ونفضت من السرير .

ووقفت الى النافذة امتع نظري بجمال الوديان والتلال
والجبال والأحراج .

وطالت وقتي .

وكنت أرى جمال الطبيعة وأفكر في وقت واحد .

انني لأفكر في طريقة الحصول على ثروة بهاء العواد
والفتك به .

لا يجوز ان تطول إقامتي في قصر وادي الجماجم الى اكثر
من أيام ثلاثة ، أعود بعدها بالثروة الى خالد ، الى عشيتي
خالد .

ونحمل ثروتنا ونطير بها الى اوروبا ، حيث نعيش عيشاً
هادئاً مطمئناً .

وفيا أنا أقف الى النافذة طروق الباب .
وتتمت : ادخل .

ودخل بديع يحمل لي القهوة .
وجلست أرشف القهوة .

وجلس بديع قربي يبتسم لي .
لقد كان بديع ضخم الجثة قوي البنية .
تلوح على محياه السذاجة والبراءة والبلاهة .
وسألني :

– من أنت ؟

هكذا « من أنت » .

بلا مقدمات ، ولا كلمات دبلوماسية ناعمة .
وقلت :

– انا ابنة رجل كبير جئت لأتنزه في هذه الجبال فوقعت
عن الجواد قرب قصركم . انني اعتذر على ما سببته لكم من قلق
وانشغال .

وابتسم وتمتم :

– انت جميلة . جميلة جداً . وأرجو لك صحة ونشاطاً
لتعودي الى والدك . قد يكون أهلك قلقين عليك . أريدن ان

أذهب إليهم وأطمئنتهم عنك ؟

قلت :

– لا لزوم لذلك . قريتي تبعد زهاء ثلاثين كيلومتراً عن وادي الجماجم ولا لزوم لازعاج الخاطر الكريم . لقد عودتهم الغياب عن البيت أياماً وأسابيع فهم لن يقلقوا عليّ . ولكن أين رفيقك أيها السيد .. ؟

فقاطني :

– أنا بديع . أنا اسمي بديع . اسم علي مسمى أليس كذلك ؟

فابتسمت :

– أجل أيها السيد بديع . اسم علي مسمى ولكن رفيقك من هو ، وأين هو ؟ ..
قال همساً :

– رفيقي شاعر كبير اسمه بهاء العواد . انه فيلسوف غارق في فلسفته حتى الآنين . أتريدن مشاهدته ؟ تعالي معي . وقادني الى الحديقة ، وكان بهاء جالساً تحت شجرة وارفة الظلال يكتب . فتقدمت منه ألقى عليه التحية .

ورفع نظره الكئيب إليّ وتمتم :

– أسعد الله صباحك يا اختي .

ولمست الحنين والحنان في صوته الناعم الهاديء كهدهده نسيم

الليل العليل .

وتقدمت منه أجلس قربه . واتمم :

- شكراً على ما أبدىتموه نحوي من عطف وحنان . انني

لماجزة عن ان أفيك جميلك ايها السيد بهاء .

قال بهاء : لا مجال للشكر ، ونحن لم نقدم على ما يستحق

الشكر . لقد قمنا بالواجب المفروض يا سيدتي .

قلت : انني اعتذر على ما سببته لكم . لقد كنت اتزده على

جوادي فكبا بي الجواد وسقطت . ولو لم تنجدوني لكنت الآن

بين عداد الاموات .

قال بهاء : نحن لم ننجدك يا سيدتي . الله ارسلنا لنجدتك .

ليس هناك عمل يتم في هذه الحياة إلا بإرادة الله . ولا هناك

خطوة نخطوها إلا بمشيئته ، تبارك اسمه وتمجدت قدرته في

الارض وفي السماء وفي ما وراء الارض والسماء .

ولامست كلماته اوتار قلبي .

إلا انني كنت في شغل عنه .

لقد كنت افكر في الطريق الذي سأسير فيه للوصول الى

ثروته الطائلة الكبرى .

وكان بهاء العواد ينظر الى الأفق البعيد وهو يفكر .

بماذا كان يفكر ؟

لست أدري .

وصمت .

وصمت هو ايضاً .

وخيم الصمت على الحديقة .

ووقف بديع بعيداً عني يجمع الأزهار .

وطال تفكيرنا وصمتنا .

فلا بهاء تكلم ولا انا .

وبعد صمت طويل قلت لبهاء .

– لماذا تقيم في هذا القصر الفسيح الأرجاء ، البعيد عن

المدينة في عزلة تامة ايها السيد بهاء ؟

ونظر بهاء اليّ ، وتمتم :

– ومن قال لك انني في عزلة ايتها الحسناء ؟ انا أعيش في

سعادة وهناء واطمئنان . انا لست وحيداً في هذا القصر ، انني

أعيش مع احلامي المجنحة وآمالي الوارفة . اعيش مع رفاقي ،

رفاق روحي ، ومع ظلال ذاتي الخفية . اعيش مع حقيقتي ،

ومع ماضي ومستقبلي ، مع كياني ، وأهوائي وضميري .

ولم افهم ما يعنيه .

فعدت الى السؤال ، قل لي ، أليس هذا القصر هو لشيخ

قصر الجماجم ؟

قال : أجل .

– وأين هو صاحب القصر ؟

قال : صاحب القصر رحل .

– الى أين ؟

– لست أدري . وهل تعلمين انت الى اين تذهبين ؟

قلت : وكيف انتقل القصر اليك ، هل اشتريته ؟

قال : لا ، لم أشتريه ، بل هو اشتراي .

فابتسمت على هزء . ماذا يقول ، القصر اشتراه ؟

وسألته : أيشترى القصر الانسان ، ام يتصرف الجساد

بالحي ؟

قال : الحي والجساد جناحان في هذه الارض . ليس للحياة

ان تخلق بسوى الاثنين . والحقيقة هي انك عندما تستأثرين

بالجساد يكون الجساد قد استأثر بك ، وعندما تستولين على المادة

تكون المادة قد اصبحت جزءاً من الروح .

قلت : لم افهم .

قال : ولا انا ايضاً . ولا احد يفهم الغرائب والمعائب

والاسرار التي تكتمف الارض ومن وما على الارض .

قلت : ألا قل لي ، كيف انتقل هذا القصر اليك ؟

قال : بالوراثة . قيل ان عمي مات فانتقل ماله الي .

قلت : إذن انت غني جداً ؟!

قال : لا انا فقير . كنت غنياً واصبحت فقيراً .

– كيف ؟

- كنت غنياً قبل ان أرث عمي ، عندما كنت ممدماً .
واصبحت فقيراً بعد ان انتقل ميراثه إلي . والحقيقة ، الحقيقة ،
هي انني اسعى لأعود الى غناي .
- كيف ؟

- عن طريق الفقر...الفقر هو الغنى ، اما الغنى فهو الفقر
بذاته . الفقير الفقير في الحياة هو الذي لا يستطيع ان يجمع
حبات الذهب من نور الشمس ، ولا عقود الفضة من ضياء القمر .
والغني الغني هو من ينام ، وينام قربه ضميره هادئاً صامتاً خاشعاً
مطمئناً . الغني الغني في الحياة هو من لا بيت له ، لأن بيوت
الناس كلها بيته . والغني من لا يحمل مالاً لأن اموال العالم كلها
في بيته . والغني هو من لا حقل ولا كرم ولا أرض له على هذه
الفانية ، لان حقوله الشاسعة الواسعة وكرومه الفضة الخضراء
وأرضه الطيبة المعطاء تنتظره هناك ما وراء الغيب .

قلت، وقد ايقنت انه غريب الاطوار : إذن انت لا تملك
قرشاً واحداً ؟

قال : هي الحقيقة .

- ولكن يقال ان عمك كان من الاغنياء المعروفين .

قال . وهذه حقيقة ايضاً .

- وأين تكون إذن اموال عمك التي انتقلت اليك .

- ذهبت ، توارت ، اختفت ، انتقلت من جيبي الى جيب

غيري كما انتقلت من جيب عمي الى جيبى .

- اتكون اضعتها ؟

- لا بل ربحتها .

وكيف ذلك ؟

- سلفتها للرب ، فرقتها على المساكين . وغداً عندما

تستحق ديونى سيعيدها الرب العادل القدير الغني ، خيرات

وذهباً وفضة وجواهر لا تقدر بال .

- كلها فرقتها على المساكين ؟

- كلها ..

- ومن أين تعيش إذن ؟

قال : يرزقني الله .

قلت : مسكين انت ايها السيد بهاء . لماذا لم تبقى على شي

من ثروتك لترد به الفاقة والفقر والجوع عنك ؟

فضحك ، وتمتم :

- أبقى شيئاً من ثروتي .. ولماذا ؟ لماذا نخزن الاموال في

الصناديق ، لماذا نجمع الذهب ونسعى في أثره ؟ لماذا نمسك

الدرام كالجائعين للخبز وكالمطاش للماء ! ألبقيها على هذه

الارض لسوانا ؟

قلت : بل لنتمتع بها .

قال : القرش الذي تتمتع به هو ذلك الذي تنفق . أما الذي

ينام في صندوقنا فلن يستفيق إلا يوم موتنا .
وارتعشت ، وبهاء يذكر الموت .

وتمتت : موتنا ، موتنا ؟

قال : أجل موتنا . الموت هو الذي نبغي ونريد في هذه
الحياة .. وليس المال . وكأني بالبشر يجمعون المال ويتسابقون
اليه لينثروه حصى في قعر وادٍ سحيق . والويل كل الويل لمن
لا يرى في حياته إلا المال .

وكان يتكلم دون ان ينظر الي "

لقد كانت عيناه عالقتين بالافق البعيد .

وكان صوته هادئاً زاعماً كنسيم الليل العليل .

وفي صوته نغمة عذبة تخترق اعماق القلوب .

وأدركت انني حيال إنسان عظيم .

وأحسست بشوق غريب الى سماع صوته وإلى النظر اميديه .

لقد شعرت أنني لست بغريبة عنه .

فكأنني اعرفه منذ أمد بعيد ، بعيد جداً .

ونفضت .

ونفض بهاء .

وسرنا معاً الى الحقول القريبة من القصر .

وعدت اروي لبهاء قصتي الملفقة ..

.. انا ابنة رجل غني جداً ، وكنت اتزده فسقطت عن

الجواد .

والذي يملك الحقول والمزارع والكروم والبساتين الفساح .
وأنا مثقفة رصينة كاملة التهذيب .
أهلي قوم محافظون .

أما أنا فمتحررة من عبودية الرجعية ...»

لقد كنت اتحدث البه في حين كان ينظر اليّ ، وكان يعلم
ان كل ما أقوله كذب وتفاق .

كانت عيناه تقولان لي :

— انت كاذبة يا رفقة .

ورحت ادرس كيفية الفتك به ، بعد ان تأكدت انه من
الصعب إيقاعه في الشرك .

وكنت مضطربة ، هلعة ، خائفة .

فأنا لا أعلم ماذا دهاني .

و كنت استفيق في الليالي التائهة البعيدة لأبكي .

أبكي دون ان اعلم سبب بكائي .

وبدأت أحس بالحب ينمر روعي بصورة مخيفة مرعبة .

تري هل أحب بهاء ؟

هذا هو السؤال الذي ألقيته على نفسي مراراً عديدة في

اليوم .

من دون ان اجري على ان أجيب روعي بصراحة .

وأقول لها : « نعم... »
لقد كنت اكبر واتمرد وأقول : « لا ، لا ، أنا لأ أحبه . انني
أضحك منه . ماذا دهاني ، هل جننت ؟ »
والآن ، الآن فقط علمت انه كان ثمة صراع هائل في اعماق
روحي .

صراع الخير والشر .
كل منها يريد الاستئثار بي ، والتغلب على الآخر .
ومضت أيام خمسة على وجودي في قصر وادي الجماجم قرب
بهاء العواد .

و كنت أجلس متحدثة اليه فيزداد تعلقي به .
كان بهاء العواد دفقة من نور .
وغمرة من حنين ، وشوق ، وحنان .
وفي جلسة من جلساتنا قلت : بهاء ا . هل ستظل مقيماً
في هذا القصر طويلاً ؟

لقد كنت اتمنى ان يرحل .
أن يبعد عني وعن شروري ، فينجو بنفسه مني ومن
عصابتي .

لقد شعرت انني أخاف عليه من نفسي .
إلا ان بهاء قال :

– انا سأقضي ما بقي لي من عمري هنا ، هنا في هذا القصر

يا رقيقة .

قلت : ولكن يقال ان هناك عصاية لصوص تعيث فساداً
في هذه الربوع . الأفضل ان ترحل عن هذا القصر وتعود إلى
المدينة .

فابتسم .

ان ابتسامته لا تزال تلوح لعيني .

وتتم : رقيقة ! .. ليس للانسان ان يخاف من شيء ، لماذا
الخوف ما دمنا لا نستطيع تجنب ما نخاف منه ؟ الانسان يخاف
الموت . ولكن هل يستطيع ان يهرب من الموت ؟ .. وهو
يخاف الظلام ، ولكن هل يتمكن من دفع الظلام واجتذاب
النور ؟ . نحن هنا على هذه الارض الفانية لنتم مشيئة الله .
قولي في شرك دائماً وأبداً : « لتكن مشيئتك يا رب » ..

وحاولت ان أضحك من كلامه .

إلا انني رأيتني مرغمة على ان اتم كلماته : « لتكن
مشيئتك يا رب » .

قلت : إذن انت لا تخاف الموت ؟ .

قال : لا أخاف شيئاً على هذه الارض ، ليس هنا على الارض
ما يستحق الخوف يا رقيقة .. ابداً ابداً ابداً .. ان الخوف هو
الشبح الذي يغمر قلوبنا وأرواحنا ويبعدها عن الله ..

قلت : بهاء ! . أنت ! . انت ! . لا أدري من أنت يا بهاء .

قال بهاء وهو ينظر الى الأفق البعيد :

— رفقة ! نظرة واحدة الى ما وراء الابدية كافية لأن
تجعل من الانسان قلباً حنوناً وشعوراً مرهناً .. رفقة ! . أنت
ستضحكين مني ، ستقولين : هذا مجنون ، هذا أبله ، ولكن
سيأتي يوم تذكرون فيه ما أقوله وتدرकिन حقيقته .. سيأتي يوم
تقولين فيه : مسكين بهاء ..

وبدأت الدموع تنهمر من عيني دون ان أعلم السبب .

وحاولت قهر دموعي ، ومنعها من الانحدار فما استطعت .

دموعي غلبتني .

لم تكن عيناى قد تعرفت الى الدمع منذ زمن بعيد .

منذ ان بدأت ادرك معنى الحياة .

وشعرت بموجة حنان ، وحنين ، وشوق ، واشتياق وهوى

تغمر روحي ..

لقد أدركت في تلك الدقيقة ان رفقة ليست رفقة .

عندئذ ، وعندئذ فقط علمت ان الحب يفعل المعائب في

قلوب البشر ..

وانتي أحب هذا الفيلسوف الجالس قربي .

وتطلعت الى عينيه لأقول باسترحام :

— بهاء ! . بهاء ! . كفى ، لا تتكلم . اني . أقرأ روحك في

عينيك .. دعني اقترب منك ، من روحك الحلوة الطاهرة

المقدمة .. لقد جعلت مني امرأة صالحة خلال الايام القليلة التي قضيتها قربك في هذا القصر يا بهاء .

فابتسم ابتسامته الحلوة الناعمة الهادئة ، وتمتم :

- رفقة ، هنيئاً للروح التي تجرد شطرها الضائع على هذه الأرض يا رفقة .

قلت :

- بهاء ! هل تسمح لي ان أعيش قربك ، ان اشاطرك العيش في هذا القصر ؟

قال :

- رفقة ليس لي ان أسمح لك ، ولا ان امنع عنك ، وقد ارسلت الله الى هذا القصر دون ان يكون لي رأي .. أنت هنا سيدة القصر لك ان تأمري بما تريدن .

انه ليطلق يدي في قصره وفي أمواله .

لو قال بهاء العواد هذه الكلمات قبل أيام قليلة لكنت استوليت على القصر وعلى كل ما في القصر .

اما الآن ، الآن بعد ان امتدت روحي الضالة الى الحقيقة فإنني لأشعر بكره شديد للمال وللمادة .

أي قيمة لهذه الأشياء إذا تحجر القلب ، وخسرت الروح نعمة الحب والطهر والبقاوة ؟

لقد جئت الى وادي الجاهم لأظفر بالثروة الطائلة ، وعندما

اصبحت الثروة بين يديّ كفرت بها .

وهذه هي حال الانسان على الارض يا رفيقاتي . انه
يسعى دائماً الى جمع المال على هذه الارض ، وعندما يصبح
المال بين يديه يدرك الخطأ الذي ارتكبه في سعيه الى المال
وجنوحه عن الخير .

لو أدرك الانسان حقيقته لما طلب من الرب شيئاً ، إلا
الرب ..

وقد قال الناصري : «أطلبوا ملكوت الله وبره أولاً . أما
ما بقي من احتياجاتكم الارضية فهو يزاد لكم » .
ومسحت الراهبة رفقة دموعها وعادت الى الكلام لتقول
لرفيقاتها الراهبات :
« وقلت لبهاء :

بهاء ! دعني أدخل الى قلبك ..
قال :

— ستدخلين الى قلبي يا رفقة ، ولكن ستدخلينه بالرب ،
فالصالح الصالح في الحياة هو من يتعبد بالاله في حبه وشوقه ،
في نومه وفي يقظته ، في طعامه وفي شرابه ، وفي أعماله
جمعاء ..

وعزمت على ان ابوح له بكل شيء
عزمت على ان أقول له : « انا رفقة رئيسة عصابة الموت ،

وقد جئت الى هنا لأفتك بك .. اهرب مني اهرب مني ، ..
قلت : بهاء أنا .. انا ..

وابتسم بهاء ..

وكانت ابتسامته أقرب الى الدمع منها الى الابتسام .
كانت نوراً ضئيلاً واهياً من خلال حجب الأسمى والحزن
والدمع .

وتتم بهاء : أنت ؟ ومن أنت يا رفقة ؟
و كأنه كان يريد استدراجي للروح بالحقيقة ..
وحاولت ان ابوح بكل شيء .

إلا ان لساني عُقد .

هل يجوز ان أطلع بهاء على حقيقتي ؟

لا ، لا مستحيل ، مستحيل ..

وقلقت ..

واضطربت ..

وقلت : أنا .. انا .. أنا رفقة .

وضحكت ..

وعاد بهاء الى الكلام ليقول : رفقة ؟ هناك من يعكر
عليك صفو الحياة .. انا اشعر معك بالألم الذي تتألمين وبالحنين
الذي تحنين . والألم يارفقة من ضروريات الحياة .
وانحدرت الدموع على خدي " غزيرة وتمتت :

- اليوم ، اليوم فقط عرفت معنى الألم يا بهاء . اليوم ..
وقد استمعت الى كلماتك الحلوة العذبة شعرت بالحنين يغمر
روحي بنوره اللاهب المحرق الجميل .. لقد كنت أتألم دون ان
أحس .. لم يكن للدموع طريق الى قلبي ، ولا للجراح سبيل
الى قلبي لأتني ..

وقاطعني بهاء : لانك كنت لا تستحقين ان تحسي بالألم
وتشعري بالأوجاع وتتذوقي حلاوة الدموع . لأن الآلام
والاوجاع من هبة السماء يا رفقة ، المتألم هنا يسعد هناك ،
والباكي هنا يبتسم هناك ، والبائس هنا يتمتع هناك بالراحة
والطمأنينة والهناء .

قلت : ولكن هل يتحتم على الانسان ان يتألم هنا ليرتاح
هناك ؟

قال : رفقة ! الألم انشودة عذبة النعمة تمر على الروح كما يمر
اللسم على أغصان الأشجار ، واوراق الازهار ، يداعبها
ولكن لا يعطمها بل ليزيدها نمواً ويرفعها الى الاعالي ..

وأخذت افكر بما يقول بهاء ..

انه يدعو الى الآلام ..

الى سكب الدموع .

تري هل يستطيع الانسان ان يروي عطشه للحياة والموت .

بالدموع ؟

ولم أكن أعلم قيمة الدمع .

لم أكن اعلم ان الدموع تطهر النفس . وتغسل الروح ،
وتنظفها من أثقال الجسد وعبء التراب .

ومضت الأيام مسرعة ، وأنا اعيش في قصر الجماجم قرب
بهاء ..

وفي كل يوم يمر كنت اشعر اني أزداد اقتراباً من بهاء
العواد ..

لقد بدأت اشعر انه جزء مني .

ترى هل هذا هو الحب الذي يتحدثون عنه ؟
لست ادري .

كان يخيل لي انني أحب عشيقى خالدُ رئيس المصابة .
أما بعد ان تعرفت الى بهاء .

بعد ان أحببته ، فقد أيقنت ان قلبي لم يختلج بعاطفة الحب
نحو خالد ..

شعرت آنذاك ان ما كان بيني وبين خالد لم يكن حباً .
كان خطيئة ..

وجريمة ..

وفسقا ..

وفجوراً ..

وشعرت بان الحب نعمة سماوية .

نعمة توثق بين روحيين ، وتشدّها الى بعض فيصبعان روحاً

واحدة .

وبدأت أحس بأنني أحب بهاء العواد .
اني احبه حبا هائلا مخيفا .
حبا أقوى من الموت واعمق من الحياة .
كان بهاء العواد يعيش في روحي ، وفي قلبي ودمي .
و كنت ألمس السعادة التامة في العيش قربه .
وكم تمنيت ان اقضي حياتي كلها بين يديه .
لقد أشعل بهاء روحي وقلبي بنار المحبة الخالدة .
المحبة الروحية المميقة التي لا تتعرف الى توافه الجسد
وسخافات الارض .
و كنت أقضي نهاري قرب بهاء في الاحراج ، والوديان ،
والتلال ، والجبال .
أما ليلى فكنت أقضيه ساهرة في غرفتي ، قرب غرفة بهاء
في القصر ، أفكر بماضي وبعاضري وبعقبلي .
وذات ليلة .. فيما أنا مستلقية على سريري أفكر ، فتح باب
غرفتي على مهل .
واستويت في السرير أحرق بالباب ، وقد بدأ قلبي ينتفض
للمفاجأة وإذا بعشيقتي خالد ينتصب في باب الغرفة كالقندر ،
كالثورة العاصفة الخيفة ..

وحاولت الصراخ ، وقد رأيت خالداً أمامي .

وأيقنت انه ما جاء إلا ليناقشني الحساب .

إلا ان خالداً وثب اليّ ممسكاً بيدي وواضعاً يده عليّ فمي
ليمنعني من الصراخ .

وهمس في أذني : الويل لك إذا استنجدت .
ثم توجه الي باب الغرفة فأوصده ، وعاد اليّ ليقول :
- رفة ماذا فعلت ؟!

وظهر الاضطراب والقلق والخوف علي وجهي ، وفي عينيّ
وقلت :

- لم أفعل شيئاً .

قال : لقد مضت أسابيع عدة وأنت لم تنفيذي المهمة التي
أتيت من أجلها الي هذا القصر . وكانت العصابة قد حكمت
عليك بالموت إلا ان سحب خالد لك اتقذك من تنفيذ الحكم .

قلت بوجل : ولكن من قال لك انني لن أنفذ المهمة ؟ أنا
ماضية في تنفيذها . بهاء العواد سيقع في غرامي وسأقوده اليكم
كالنمجة الصاغرة ولكن اتركوا لي مجالاً للعمل .

فقمقه خالد وزأر : كاذبة .. كاذبة . بهاء العواد أوقعك في
حباله .. أنت تحيينه . لقد وصلتنا أخبارك يا مجرمة .

وحاولت الاعتراض .

حاولت الدفاع إلا ان خالداً رفع يده وانتهال عليّ بصفحة
قوية .

وكدت أرد له الصفحة إلا انني خشيت نشوب معركة تشير

انتباه بديع وبهاء .

وتكون القضية .

ووثبت الى خالد محاولة استعادة سيطرتي عليه ، وقلت له :

— خالد .. أخرج من هنا .. أخرج ، اسرع بالخروج ، لن

تضي أيام قليلة إلا ويكون بهاء قد وقع في الفخ .

إلا ان خالد لم يرد على ما قلت ، واكتفى بقوله :

أخبارك وصلتني .. لقد جاءني انك عشقت بهاء يا رفقة ،

جاءني انك متدلهة في غرامه . انني اهنتك بهذا الغرام الجديد .

قلت :

— مجنون . هذا جنون منك في الغيرة يا خالد . كل ما جاءك

كذب ونفاق لا صحة له على الاطلاق .

قال خالد :

— اسمعي إذن . العصابة تطوق القصر الآن ، ومنصور

يقف في البهو الخارجي ، وانا سأتوارى في الدهليز المؤدي الى

الأقبية . خذي هذا الخنجر واغمديه في صدر بهاء فتبرهني

لي وللعصابة انك وفيه ، وتلحقين بنا . لديك عشر دقائق

فقط .

وذعرت ..

ماذا يقول خالد ؟

ماذا يقول ؟

وحاولت الاعتراض ، وقلت :

— خالد ! . لم تكن هذه خطتنا . الخطة التي رسمناها
سأنفذها ، أخرج أخرج .
إلا ان خالداً لم يخرج .
بل جلس على السرير وأشعل لفافة . وتمتم :
— الويل كل الويل لك إذا لم تنفذي اوامري .
ورمى الحنجرة امامي .
وخرج مسرعاً وهو يتمتم : عشر دقائق ، عشر دقائق .
وأمسكت بالحنجرة انظر اليه برعب .
يا ويلى ، يا ويلى .
ماذا افعل ، هل أنفذ أوامر خالد ؟
هل اغمد الحنجرة في صدر بهاء ؟
هل أقتل حبيبي ؟
مستحيل ، مستحيل .
وانصرفت الى التفكير .
ماذا علي ان أفعل ؟
إذا لم اقتل بهاء فالعصاة ستفتك بي .
وربما فتكت ببهاء ايضاً .
وطال تفكيري .
وكانت الدقائق تمر بسرعة .
ولاحت لي فكرة قريبة المنال .

سأتعحر ..

الموت افضل حل للمعضلة المعقدة ..

ورفعت الخنجر .

وأغمضت عيني .

واستسلمت للقدر .

وحاولت إغماذ الخنجر في صدري .

إلا انني شعرت بالوهن :

شعرت بالخوف يداعب قلبي .

انها لساعة رهيبة ساعة الموت .

ولم يعد بيني وبين الساعة الفاصلة سوى لحظات قليلة .

عندما يخترق الخنجر الصدر وينفذ الى القلب تكون رفقة

قد أصبحت في العالم الثاني .

وذعرت وانا أرى الموت امام عيني .

ولاحت لي الأبدية من خلال الموت بخيفة مروعة هائلة ..

وشعرت بيدي ترتجف .

وإذا بالخنجر يسقط من يدي .

ولم استطع الاستمرار في الوقوف .

فسقطت الى الأرض وأجهشت بالبكاء .

وسمع بهاء الراقص في الغرفة المجاورة بكائي فهب من نوم

وأسرع اليّ على قلق .

وشاهدني ملقاة على الارض ، فأنحني عليّ يرفعني بيديه
ويتمتم :

رفقة ! رفقة ! رفقة ! .

ونظرت اليه هامة :

- بهاء ! بهاء ! .

ووقع نظر بهاء على الحنجر الملقى قربي فأنحني يلتقطه ،
وينظر اليه ثم ينظر اليّ بأسف ويقول :

- إذن أنت عزميت على التنفيذ .

فدهشت .. وقلت :

- هل كنت تعرف ؟

قال : أجل كنت أعرف كل شيء . كل شيء يا رفقة ..
أعرف انك لست ابنة مزارع غني .. انت عشيقه خالد رئيس
المصابة .. منذ ان دخلت إلى القصر عرفت عنك كل شيء .
انت لم تحضري الى هنا إلا لتفتكي ببهاء يا رفقة .

قلت : تعرف كل هذا وتسمح لي بالاقامة هنا .. معك في
قصرك يا بهاء ! .

قال : لم أكن اخاف منك على نفسي بل كنت اخاف منك
على نفسك .

قلت : بهاء ! . بهاء ! . أنت ملاك .

وارتميت على صدره الجهش بالبكاء ، واتمم :

— حبيبي بهاء ، حبيبي بهاء ، حبيبي حبيبي .
وأمسكت بيده أشده الى غرفته واقول : حبيبي ، يجب
ان تنام ، عد الى غرفتك يا بهاء .
لقد حاولت إبعاده عن غرفتي قبل عودة خالد .
كنت على يقين من ان خالداً سيعود ليفتك بي وببهاء .

وقلت له : عد الى غرفتك ونم يا حبيبي .
قال : سننام طويلاً ، طويلاً جداً يا رفقة ، سيأتي يوم قريب
ينام فيه بهاء النوم الأبدي . رفقة ، لقد قربت ساعة الرحيل .
يخيل إلي ان الموت أصبح قريباً مني .

والقيت برأسي على صدره ، والدموع تنسكب من عيني .
وقلت : بهاء كفى ، كفى تجرح روحي يا بهاء . ستعيش
عمرأ طويلاً طويلاً جداً ، وستعيا رفقة معك ، تحنو عليك
وتغسل جراح قلبك ، وتكفكف دموع روحك .

قال : رفقة ، خيال الموت يسبق حقيقته الى الانسان .
وعندما يشاهد الانسان شبح الموت بعين خياله تكون حقيقة
الموت قد أصبحت على مقربة منه ، فهو يشاهد الموت قبل ان
يرى الموت بلحظات قليلة ويود لو تقدر له فرصة الحياة ليعود بها
الى الوراء ، إلا ان الحياة تنفض يدها منه .

وهمست في أذنه :
— بهاء ، أنت روحي يا حبيبي .

وإذا بالباب يُفتح فجأة .
ويتنصب خالد أمامنا ، والغضب يهزه هزاً .
لقد كان منظره مخيفاً مرعباً .
وأمسك بيدي يسلمني عن صدر بهاء ، ويصرخ بي :
« حبيبك يا شقية ؟ » .
ودفعني عنه .
وهجم على بهاء محاولاً انفتك به .
إلا ان بهاء حاول الدفاع عن نفسه .
وصرخت ، وقد أيقنت ان خالداً سيتغلب على بهاء :
بهاء ! بهاء ! . أهرب يا بهاء ، أهرب .
إلا ان بهاء لم يهرب .
وبدأت المعركة بينها ، بين بهاء وخالد .
وسمع بديع الاصوات فاستفاق .
وأسرع الى غرفتي ، وما ان شاهد المعركة حتى دعر .
وأخذ يرتجف .
وأطلق ساقيه للريح ، وهو يولول : الارواح ، الارواح ،
لقد هاجمتنا الارواح الشريرة ، أنجدونا .
وتلاشى صوت بديع رويداً رويداً مع اطياف الليل
واشباحه ، وكان خالد وبهاء في معركة دامية
كان بهاء يحاول الدفاع عن نفسه ، لم يكن يرد لطيات خالد

وضرباته بالمثل .

وتمكن خالد من ان يلقي ببهاء فوق المقعد .

إلا ان بهاء رفعه برجله فتهادى خالد الى الورا .

وحاول بهاء النهوض إلا ان خالدأ كان قد استل خنجره

المصقول وهجم على بهاء محاولاً إغماذ الخنجر في صدره .

وجثم على صدر بهاء .

ورفع الخنجر .

إلا ان يد بهاء أمسكت بيد خالد .

وكان الخنجر يقترب من صدر بهاء رويداً رويداً .

واحتدت في أمري .

وعبث الخوف بي .

عليّ ان اذافع عن بهاء .

عليّ ان أنقذ حبيبي .

والتفت حولي فوق نظري على الخنجر ملقى على الارض .

انه الخنجر الذي سلمني إياه خالد لأغمده في صدر بهاء ،

والذي حاولت الانتحار به .

وأسرعت الى الخنجر ألتقطه ، وأهجم على خالد الجاثم على

صدر بهاء ، من الورا ، وأغمد الخنجر في ظهره .

وذعر خالد .

وارقد إليّ محاولاً طعني بالخنجر .

إلا اني كنت أسرع منه فابتعدت عنه ورشقته بالخنجر من بعيد .

واستقر الخنجر في صدره .

بل في قلبه .

... فتهادى ، ليقع على الارض وهو يزجر :

- رفقة ! يا مجرمة .

وكانت هاتفت الكلمتان آخر ما تلفظ به خالد قبل ان

يموت .

وبدا الدم يتدفق بغزارة من صدر خالد ومن ظهره .

ووقف بهاء قربي ينظر الى جثة خالد .

ثم رفع نظره إلى لي يقول : رفقة .. ماذا فعلت يا رفقة ؟

قلت : قتلته .. هل أدعه يفتك بك . ألا ادافع عنك ؟

قال : لا يا رفقة خير لنا ان نُقتل من ان نقتل .

وأمسكت بيده اقول : هيا بنا .. أسرع ، يجب ان نهرب ،

العصابة تطوق القصر وستهاجمنا وتفتك بنا إذا اكتشفت مقتل

رئيسها .

وقبل ان نسير خطوة واحدة كان منصور ، اللص الخفيف ،

يشب الينا مزجراً : الانتقام لرئيسنا الانتقام ا
وأدركت ان منصور سيفتك بي .
فهو مخلص لرئيسه كل الاخلاص .
وكان خالد يحب منصوراً ويعطف عليه .
ولم يخطيء ظني ، فقد شهر منصور مسدسه وصوبه إليّ من
بعيد وهو يزأر : يا مجرمة ، يا مجرمة .
وصرخت به : منصور ! . لا يا منصور .
وشاهد بهاء فوهة المسدس مصوبة الى صدري ، فوثب يقف
بيني وبين منصور .
وإذا بالرضامة تنطلق لتستقر في صدر بهاء ، في صدر
حبيبي . . .
وتهادى بهاء بين يدي .
وهوى الى الارض والدم يتدفق من صدره .
وتطلعت الى منصور أتمتم : « يا كافر قتلت حبيبي » .
إلا ان منصوراً كان قد ركن للفرار .
ووقعت أنا فوق جثة بهاء المخضبة بالدم اولول : بهاء ا . بهاء
بهاء .. حبيبي بهاء .. كلمني يا بهاء ، انا حبيبتك رفقة ،

بهاء بهاء ..

إلا ان أذن بهاء لم تسمعني لأنه كان قد غادر هذه

الحياة ...»

ومسحت الراهبة الحزينة دموعها بتديلها .
وأرسلت زفرة محرقة وهي تستعيد... وأكملت :
« وعزمتُ على الانتقام . سأنتقم من العصابة بأسرها لدم
بهاء . . . »

ولممت همتي محاولة استعادة قواي وسرت .
سرت على غير هدى الى أقرب مخفر للدرك أقول :
« انا عشيقته خالد رئيس عصابة الموت . قتلت عشيقتي ،
ورويت قصتي لرجال الأمن .
وإذا بفرزة من الجند تسرع الى وادي الجماجم ، الى قصري ،
الى مقر العصابة .

وكنت أتقدمهم وأرشدهم الى مخابىء العصابة .
وفتحت أبواب الأقبية في قصري ليخرج منها المساجين
وبينهم شيخ قصر الجماجم ، ورجل الأمن عادل البسام ، وبعض
كبار الأغنياء الموسرين .

واعتقل جميع أفراد العصابة .
وصودرت الاموال ، والجواهر ، والحلي .
واكتُشف سر عصابة الموت .
ومثلنا جميعنا أمام القضاء .

وأنا ما زلت أذكر يوم وقف بديع شاهداً أمام القضاء يدل
عليّ وأنا في قفص الاتهام ، ويقول .

— هذه هي الجنينة التي وقعت عن ظهر جوادها أمام القصر ،
فأسعفناها وأدخلناها الى القصر فاستمادت قواها وأقامت بيننا
على أحسن حال ، وكانت تأكل وتشرب وإيانا ، وكانت تقني ،
ولكنها كانت غريبة الأطوار ، فهي تضعك حيناً وتبكي
أحياناً . ولم أعرف انها جنينة إلا عندما شاهدت معركة الأرواح
في القصر التي انجلت عن مقتل أحد ملوك الجن وصديقي الحبيب
بهاء .

وكانت اعترافات رجال العصابة في مصلحتي .

الكل يحزم انني لم ألتخ يدي بالدم ، وأنني لم أكن إلا
عشيقة رئيسهم .

أما مقتل خالد فقد كان دفاعاً عن النفس ، لا سيما ان
خنجره كان لا يزال في يده .

وحكم القضاء على أفراد العصابة بالسجن مدداً متراوحاً بين

عشرين سنة وثلاث سنوات

أما انا فقد كان نصيبي خمس سنين قضيتها في السجن أبكي
خطاياي وحببي وحببي .

ويوم خرجت من السجن ، أسرعت الى وادي الجماجم لأقف

لحظة. على قبر بهاء .

وشاهدت على القبر ضمتين من ورود .

كتب على إحداها كلمة «بديع» وعلى الثانية كلمة «سلي» .
وعلمت من القرويين ان بديعاً وسلي كانا يحضران في مطلع
كل ربيع الى وادي الجماجم فيزوران قبر بهاء .
ويضعان فوقه ضمتين من ورود وزهور .
وركعت فوق القبر أصلي .

وأبكي ..

أبكي بكاءً مرأ .

بكاءً خارجاً من روحي لأ من عيني .

وهمت على وجهي .

وسرت لا اعلم وجهة سيرتي .

الى ان وجدتني أمام هذا الدير .

وكادت الكلاب ، كلاب الدير تنهش لمي محاولة الفتك بي .

وُفتح الباب ، باب الدير ، وخرجت منه الأم الرئيسة لتمد

اليّ يدها وقد خلني الى هذا الدير .

ورويت للأم الرئيسة قصتي فأشفقت عليّ .

ووافقت علي ان اعيش خادمة هنا .

وقبل ان تموت الأم الرئيسة أوصت خليفتها بأن تقبلني

راهبة بين راهبات .

وقد سمعتها وهي تقول على فراش الاحتضار : « ان رفعة
جديرة بارتداء الثوب الأسود . فاقدها قادمنا ، وعلمنا ان
نتم مشيئة الخالدة » .

الخاتمة

وعادت الراهبة رفقة الى سكب الدموع والى التفرس
بالرسم الذي تحمله .

وقالت لها الراهبة شمونة : كفى بكاء يا اختنا ، كفى
تعنيا لروحك .

قالت رفقة : ان جميع ما في العالم من دموع لا تستطيع ان
تغسل خطاياي ، انني ابكي الشاب النبيل الذي كنت سبب موته
وكان سبب توبيخ وخلص نفسي . وها انا احمل رسمه تذكراً
منه وإقراراً بفضل علي . لقد كان بهاء العواد نوراً أنار سبيلي
وأرشدني الى طريق الخلاص ، ودمه كان غيثاً غمّل اوساخ
روحي وادران نفسي . وسأبكيه طيلة العمر على دموعي
تمحو ذنوبي فيرحمني الله في الآخرة .

أما الآن فقد قارب الليل الانتصاف . فلنصل لراحة نفسه
الطاهرة قبل انصرافنا الى النوم .

وركن ..

وبدأ بالصلاة .

وإذا بالراهبة رفقة تنظر من خلال زجاج النافذة الى الغمام
المنتشر في الفضاء لتستعيد نظرات بهاء ووجهه السابح في
الغيام .

وتسمع من زجيرة العاصفة صوت بهاء يتناديها من وراء
الابدية: رفقة .. رفقة انظرة واحدة الى الموت كافية لأن
تجعل من الانسان قلباً وشعوراً .. أنت متضحكين مني ،
ستقولين هذا مجنون ، هذا أبله ، ولكن سيأتي يوم تشتاقين فيه
الى امتاع كلماتي ، سيأتي يوم تقولين فيه مسكين بهاء ...
رفقة .. رفقة .. رفقة ..

* *

وأغمضت الراهبة رفقة عينيها وبدأت الدموع تنهمر على

وجنتيها ، وهي جائمة علي ركبتيها تضم صورة بهاء الي قلبها .
وتتمت :

« يا ربّ ، يا إله السماء والارض ، يا ارحم الراحمين .
إرحمني ، اغفر لي آثامي وخطاياي ، وارحم بهاء ، .. »

قصة القصة

هذه القصة كتبها بيار روفاييل مسرحية عام
١٩٥٧ باسم «رفقة» ..

وقد مثلت مسرحية «رفقة» على مسارح
المدن والقرى اللبنانية مرات عدة .

ثم كتبها قصة نشرت عام ١٩٦٦ ، واعيد
طبعها أربع مرات .

وهي الآن بين ايدي القراء في طبعتها الخامسة .

الامل الصريع

الامل الزاهر الزاهي الجميل الذي تنتظرونه كل
عنواه ..

الحلم الذي يتراءى على افترار واخضرار لكل
فتاة ..

الامل الغضل الجناح ، والحلم الوارف الهنيء ..

الامل يصبح سرايباً ..

والحلم ينقشع عن الحقيقة الدامية المؤلمة ..

انه «الامل الصريع» ..

اروع ما كتب بيار روقايل ..

مؤلفات الاستاذ بيار روفائل القصص العاطفية

سرّ الراهبة
صرخة الاستقلال
صقر الصحراء
ضاع عمري
طريق الدموع
ظلمتني يا قلب
غادة دمشق
في مهبّ الرياح
القلب الأخضر
لا تلمني
لن يعود

الأرض العذراء
الأمل السريع
انا خاطئة
بين نارين
حسنا بغداد
خبز ودمع
خذ قلبي ودعني
دموع الأرز ٢/١
دموع العذارى
دموع لا تجف
زنبقة في الوحول

نار في الجنوب
هل تذكرين
وحدتي مع الليل.

ماذا فعلت بقلبي
معقل النسور ٢/١
ملائكة في الجحيم
من اجل عينيك

تطلب من دار الجيل

